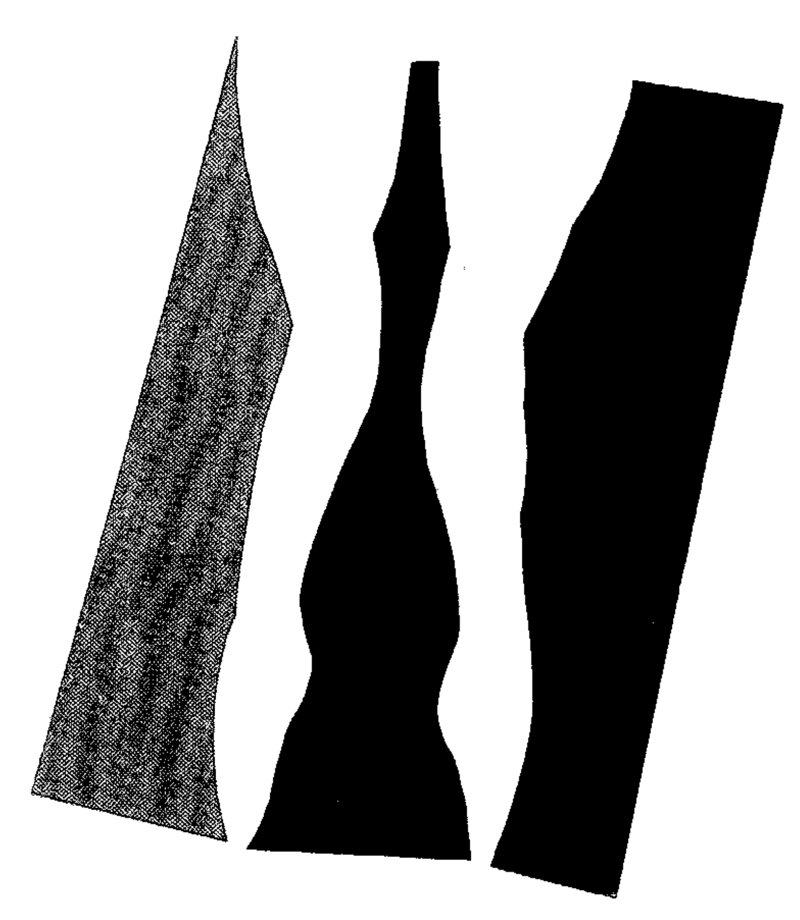
الصادق النيهوم

فرسان بلا معركة

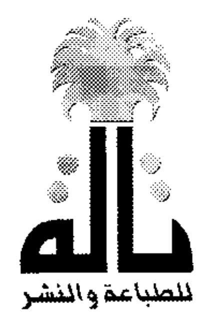




عبد الله علي عمران

فرسان بلا معركة

الصادق النيهوم



المحتويات

مقدمة

مجتمعنا مجتمع رجال. ذلك لا يعني بالطبع أن جميع مواطنينا من الذكور فقط، بل يعني بتفصيل أكثر أنه إذا أتيحت لك الفرصة ذات مرة لكي تتعرف على ثقافتنا من الداخل فلا بد أن تكتشف فوراً أنها غير محايدة تسودها وجهة نظر الرجل وحده.

مرآة عريضة مثل عرض سمائنا تعكس دائماً صورة رجل أحمر العينين يرتدي جرده الحرير أو بدلته المودرن ويلوك المضغة أو يدخن سجائر الفلتر ويتحدث بيديه ـ وأحياناً طبعاً بلسانه ـ في موضوع ما بين نتائج الدوري الممتاز وبين الطريقة المثلى لغزو مدغشقر. إنه ليس وجهاً واحداً وليس أيضاً لحية واحدة لكنه دائماً ـ ومن هنا إلى مدغشقر ـ وجه ولحية يصنعان معاً قيمة محددة مثل قيمة العملة التي لا تتمثل في قرش معين أو مليم معين بل في جميع القطع على حد سواء. هذه ثقافتنا هنا.

فكر رجالي فصله الرجال على مقاسهم طوال مائة مليون سنة من حياتنا في الغابة وعكس ملامحهم فوق حضارتنا التالية كما تنعكس ملامح التمساح فوق صفحة النهر، لكن كلمة «التمساح» لا يجوز أن تثير غضبكم. فأنا لا أنوي أن أزعم بذلك أن ملامح هذا الفكر الرجالي قبيحة أو بدائية ولا أنوي أيضاً أن أزعم لكم أنها ملامح غير طبيعية. كل ما أردت أن أحققه من وراء الكلمة المؤلمة هو أن ألفت نظركم إلى أن صورة

التمساح ـ إذا كانت قبيحة أو بدائية ـ فإن التمساح بالذات آخر من يعلم. إن الفكر الذي ينظر إلى العالم من وجهة نظر الرجل وحده فكر متحيز وغير قادر على التزام الحياد ومعد خاصة لكي يرى الأشياء بعين الرجل ويتجاهل عين المرأة والطفل ويتجاهل أيضاً أن هذا الخطأ بالذات يجعله يبدو من الخارج بمثابة فكر أعور. إنه معد لكي يرى نصف الحقيقة فقط.

فمن وجهة نظرنا الحالية يبدو المجتمع هنا «نظاماً طبيعياً» لأننا نعرف أن الطبيعة نفسها لا تملك مجتمعاً واحداً تسوده الإناث لكننا ننسى غالباً أن الطبيعة أيضاً لا تملك مجتمعاً واحداً يسوده الذكور.

ومن وجهة نظرنا الحالية تبدو سلطة الرجل في بلدنا سلطة مألوفة لأننا نعرف أن القارب الذي يدير دفته قبطان واحد لا يتعرض للغرق بسهولة لكننا ننسى أن الرجل وحده ليس في الواقع قبطاناً كاملاً بل ثلث قبطان. إن الإنسانية مكوّنة للأسف ـ من ذكر وأنثى وطفل.

ومن وجهة نظرنا الحالية تعيش المرأة الليبية حرة كريمة تحت وصاية الرجل لكننا ننسى أن أول شرط في حكاية الحرية والكرامة أن لا يعيش المرء تحت وصاية أحد غير ضميره. إن الرجل يتذكر هذه الحقيقة البسيطة فوراً إذا دعاه أحد ما إلى أن يعيش ذات مرة حراً كريماً تحت وصاية المرأة.

ومن وجهة نظرنا تبدو الأسرة الليبية خلية متماسكة لأنها تعيش دائماً تحت سقف بيت واحد وتأكل من قصعة واحدة تحت رقابة الرجل لكننا ننسى أن هذا النوع من التماسك ـ إذا لم يخل من الرقابة كلية ـ فإنه في الواقع مجرد نوع من معسكرات الاعتقال.

ومن وجهة نظرنا الحالية تبدو نصف الحقيقة حقيقة كاملة. هذه إحدى العلامات المميزة للفكر المتحيز بكل أشكاله. وأسوأ ما في الأمر أنها علامة تقع دائماً في الجانب الآخر، أعني الجانب الخفي الذي يحب الرجل أن يراه بعينه السليمة ولا يستطيع أن يراه بعينه العوراء. إن مجتمعنا ـ الذي صمم الرجل وحده كل تفاصيله من طريقة بناء البيت إلى طريقة تربية الأولاد ووضع عليه خاتمه الشخصي كما يضع السلطان خاتمه فوق وجه

الدينار لكي يصبح قابلاً للتداول ـ هذا المجتمع يمثل وجهة نظر واحدة ويحمل ختماً رسمياً على وجه واحد فقط أما الوجه الآخر فإنه في الواقع مجرد ورقة بيضاء.

ذلك يعني بتفصيل أكثر أننا هنا ـ وفي جميع الأقطار النامية الأخرى ـ لم نفهم «المجتمع» باعتباره نظاماً حياتياً لاستثمار طاقات الرجل والمرأة والطفل من أجل الصالح المشترك، بل باعتباره مؤسسة رجالية لاستثمار طاقات المرأة والطفل من أجل صالح المؤسسة. إن مجتمعنا يبدو من الخارج بمثابة قارب يدير دفته الرجال وحدهم ويعبر فيه الأطفال والنساء باعتبارهم مجرد رُكاب. والمضحك في الأمر أننا نتقاضى منهم ثم التذكرة إلى آخر مليم.

المرأة في بلادنا لم تشارك في هندسة مجتمعنا.

لم تشارك في تقييم أخلاقياته. لم توافق على مزاعمنا القائلة بأن شرف البنت مثل عود الكبريت وشرف الرجل مثل ولاعة الرونسون. لا تعتقد أن ثمة فرقاً بين هفوة الرجل وبين هفوة المرأة. لا تؤمن بأن أخاها يستحق أن يمتاز عنها بمقدار عقلة إصبع لمجرد أنه يملك بعض الشعر في لحيته. لا تريد مجتمعاً يوزع امتيازاته بين أفراده طبقاً لطول الشنب. لا تحتاج إلى وصاية الرجل لكي تعيش حرة كريمة مادام في وسعها أن تفعل ذلك تحت وصاية ضميرها وحده. المرأة الليبية تشتغل وظيفة راكب في قاربنا الرجالي وتشغل بالذات وظيفة راكب رغم أنفه.

إنها لم تكتب كلمة واحدة في سفر أخلاقياته.

لم تنل قط فرصة التصويت على هذا السفر، لم تفعل شيئاً طوال المليون سنة الماضية سوى أن تمشي وراء الرجل وتحمل له أطفاله وتتبعه من كهف إلى كهف ومن بيت إلى بيت وتطبخ له طعامه وتبصم بأصابعها العشرة على كل قرار يخطر بباله بما في ذلك أن يرميها لتماسيح النيل في موسم الفيضان أو يرسلها لكي تخطب له امرأة أخرى. إن المرأة الليبية جلست مليون سنة في عنبر الركاب وما تزال تجلس بصبر في انتظار نهاية هذه الرحلة المضنية. وهذا الحديث يخص حكاية الرحلة.

إنه ليس عريضة شكوى بالنيابة عن المرأة.

ليس عرض حال للمطالبة بحقوقها في عنبر الركاب.. ليس استغاثة مسجوعة لكي تتبرعوا لها ببعض الشفقة. إنني لا أعتقد أن المرأة الليبية في حاجة إلى شفقة من أحد ولا أعتقد أيضاً أنني أستطيع أن أؤدي لها خدمة معقولة إذا طالبتكم بالبكاء من أجلها فوق هذا الورق. إنني أختار زاوية أفضل للنقاش.

أختار أن أحكي لكم كيف بدأت الحكاية.

كيف صار الرجل قبطاناً بلا قارب وانطلق يبحر فوق اليابسة ويشكو من دوار البحر. كيف وقعت المرأة في الأسر ودخلت مع البقرة في عنبر الركاب. كيف أبحر قاربكم بالغنيمة ووصل إلى هنا؟

إن ثمرة الرحلة معروفة لكم جميعاً لأنها ما تزال أمام أعينكم حتى غد. مجتمع مثالي من الذكور المثاليين يفتل شواربه في الشوارع والمقاهي وملاعب كرة القدم ويكدح جاهداً لكي يطعم إناثه وصغاره ويطلق على نفسه الصفات الحلوة ويطلق عليه خصومه معظم الصفات الباقية. هذه ثمرة الرحلة.

وبالنسبة لي ليس ثمة ما يدعو إلى الشكوى.

إنني أعتبر مجتمع ليبيا مجتمعاً عادياً لا غبار عليه وأقبل كل صفة يريد أن يطلقها على نفسه وأفهم أخلاقياته باعتبارها نوعاً من الأخلاقيات، وأصدِّق كل كلمة يكتبها عنه المتحمسون لنظمه، وأصدِّق أيضاً أن الثمرة مجزية حقاً وأنها تقطر سكراً لكن ذلك كله أمر خارج كلية عن نطاق هذا الحديث.

القضية التي تهمني هنا لا علاقة لها بتقييم مجتمعنا ولا علاقة لها أيضاً بنقد فضائله أو رذائله وليس من شأنها أن تثير سخط أحد أو تنال رضاء أحد. القضية التي أعرض لها هنا سرد تاريخي لأحداث وقعت حقاً وانتهى أمرها وليس بوسعي ـ أو بوسع أحد منكم ـ أن يغير منها شيئاً سوى الرتوش السطحي. وإذا خطر لكم أنني أستغل لعبة الرتوش لكي

أجعل الصورة تبدو رديئة أو جميلة أكثر مما ينبغي فالرجاء أن لا تغفروا لي هذا الضعف الإنساني.

إنني ألتزم بواقع الصورة.

وألتزم أيضاً أن أضع بين أيديكم سرداً شبه مفصل للأحداث التي أدت إلى ميلاد مجتمعنا ومنحته شكله الحالي وطبعته بطابع الذكر دون الأنثى.. كل ما أطمع فيه للبدء في هذه الرواية أن نتفق مقدماً على أن الحقائق التي نراها بأعيننا في مجتمعنا هي الحقائق الواقعة وليس ما يهذي به بعض مواطنينا من الأشعار الرديئة عن مجتمع ليبي آخر غير مرئي.

إن مجتمعنا هو الذي نراه كل يوم بأعيننا.

وفي هذا المجتمع يعتبر الرجل نفسه وصياً على المرأة والطفل معاً، أعني أغلبية الرجال على الأقل يحسون بهذه الوصاية وأغلبية الرجال مستعدون للموت أحياناً دفاعاً عنها. إذا اتفقنا على أن هذه الصفة الظاهرة صفة لمجتمعنا حقاً وليست دعاية مغرضة من جانبي أقوم بها لخدمة بعض الجهات المعادية للفضيلة. إذا اتفقنا على هذه النقطة الصغيرة فأنا أملك حكايتي جاهزة للسرد.

إنها ستضع بين يديك حفنة من الحقائق عن مجتمعنا الرجالي. عن وصاية الرجل وكيف بدأت وأين بدأت ولماذا لم تنته حتى الآن. وإذا أحسست أن الأسباب التاريخية لهذه الوصاية لم تعد قائمة، أو لم تعد ضرورية على الأقل، فالرجاء أن تتذكر أن ذلك لا يجوز أن يدفعك أنت إلى التخلي عن شيء من وصايتك على امرأتك أو أختك أو ابنتك. اغمض عينيك واستمر في الابحار بقاربك على طول زقاقكم. إن هذا الحديث يخص جارك فقط.

الحكاية بدأت منذ عشرين مليون سنة، أعني حكاية قديمة إلى حد ما لكنها بالنسبة لعمر العالم حدثت في الواقع منذ ساعة تقريباً. فقد عاش إذ ذاك في سهول كينيا نوع من الغوريلا يختلف عن بقية القرود الكبيرة والصغيرة في نقطة واحدة فقط. لقد كان يحمل في جمجمته دماغاً حجمه 7,973 سنتيمتراً مكعباً وكان ذلك الدماغ الهائل ـ منذ عشرين

مليون سنة ـ سلاحاً رهيباً لا يقل إثارة للرهبة عن قنابلنا الذرية الحالية.

لقد كان الغوريلا العبقري سيد الغابة بلا منازع.

1

ضريبة

.. وقلت إن الحكاية بدأت بقرد وإن ذلك المخلوق بالذات لم يكن يختلف عن بقية القرود الأخرى في شيء سوى حجم مخه الهائل. لقد كان يملك مخاً أكبر ثلاث مرات من دماغ الشمبانزي وكان يحسن استعماله بكفاءة عالية جداً.

اسمه العلمي «هوموراكتوس» التي تعني تقريباً «الإنسان المرفوع القامة»، لكن ذلك القرد لم يكن إنساناً مرفوع القامة منذ البداية.. لقد استغرق أكثر من عشرين مليون سنة قبل أن يتعلم كيف يشد ظهره ويمشي على قدميه الخلفيتين. وخلال هذه الأحقاب المتطاولة زرعت بذور المجتمع الذي نراه الآن في بلدنا وتمّ تكوين الأسرة البشرية وأصبحت المرأة جزءاً من مملكة الرجل. لقد حدث ذلك بمثابة ضريبة غير متوقعة على حجم المخ من جهة وطول فترة الطفولة من جهة أخرى.

فالدماغ العظيم الذي حمله الغوريلا في جمجمته لم يجده بالطبع في اليانصيب ولم يدله له أحد في سلة من السماء بل رباه بنفسه دون أن يدري ـ كما يربي المرء عضلاته بالعمل اليدوي ـ طوال مائة مليون سنة من التجربة والخطأ، وعندما اكتشف تفاصيل

الوصفة السحرية في نهاية المطاف، كانت الوصفة قد أصبحت نظاماً اجتماعياً مقدساً وكان الإنسان قد أصبح أسيراً لهذا النظام مرة واحدة وإلى الأبد. حكاية الوقوع في الأسر ليست معروفة لنا بالتفصيل لكننا نستطيع أن نحدس معظم خطوطها العريضة.

فالقرد بالذات ـ دون بقية حيوانات الغابة ـ لم يعتمد على عضلاته فقط، إنه حتى الآن ما يزال مخلوقاً ـ نصف فيلسوف ـ يستعمل دهاءه أكثر مما يستعمل مخالبه ويعتمد بقدر أو بآخر على كفاءة مخه في حل مشاكله الطارئة. لكن مخ القرد العادي مجرد آلة بدائية جداً بالمقارنة إلى الجهاز العظيم الذي حمله «الهوموراكتوس» في جمجمته منذ مائة مليون سنة على الأقل.

لقد كان يملك دماغاً أفضل بكثير من دماغ القرد، وكان يعتمد عليه أكثر ويسخره لمواجهة معظم ظروف حياته التي لا يستطيع أن يواجهها بقوة عضلاته. وإذا قيل لك إن الاستعمال المتواصل لأي عضو من أعضاء الجسد لا بد أن يؤدي إلى نموه نمواً مطرداً، صار بوسعك أن تتصور ما حدث لذلك القرد الفيلسوف خلال مائة مليون سنة من كسر رأسه في التفكير. لقد بلغ حجم مخه ثلاثة أرباع حجم مخك أنت الآن.

ضمرت بقية عضلاته ..

ضمر ذيله أيضاً وصار مجرد عظمة صغيرة مدفونة تحت الجلد. ضعف ساقاه بعض الشيء. لم يعد قادراً على الجري مثل الحيوانات البرية. لم يعد قادراً على القتال مثل الحيوانات المفترسة، لكن مخه المذهل كان ينمو في الخفاء وكان يعده ـ دون أن يدري ـ لكي يحكم هذا العالم.

نمو المخ ظاهرة مستحيلة بدون شرطين أساسيين:

الأول، فترة حمل طويلة جداً ـ مقدارها تسعة أشهر ـ ريثما يكتمل نمو المخ البيولوجي.

والثاني، فترة طفولة أطول كثيراً ـ تزيد على ثلاث عشرة سنة ـ ريثما يصبح المخ معداً للعمل بكفاءة. هذان الشرطان لا بد أن يتوافرا في أي نظام اجتماعي يستطيع القرد العبقري أن يعيش فيه. بدونهما لا بد أن ينقرض القرد أو على الأقل يصبح قرداً حقيقياً إلى الأبد.. فهل تستطيع الآن أن تتصور ماذا حدث؟

في مكان، في زمن ما منذ مائة وخمسين مليون سنة تقريباً وقف جنس واحد من الغوريلا على مفترق الطرق ثم انقسم فجأة إلى قطيعين مختلفين كلية. قطيع تبنى نظاماً بيولوجياً واجتماعياً خاصاً لا تزيد فيه فترة الطفولة عن بضعة أشهر ينعم فيها الطفل ببعض الحماية واللبن والتنزه في الغابة فوق كتف أمه ريثما تقوى عضلاته على حمله ثم يتفضل بالنزول ويتعلم كيف يحل مشاكله بنفسه أو يسقط فريسة أول ضبع جائع يرتاد معسكر الغوريلا خلال الليل.

القطيع الآخر تبنى نظاماً بيولوجياً واجتماعياً مختلفاً تزيد فيه فترة الطفولة على ثلاث عشرة سنة كاملة ينعم فيها الطفل بكل شيء تقريباً. بحماية الكبار ولبن أمه ونصائح والده والنزهة في الغابة محمولاً على الأكتاف. لقد كان هذا القطيع في طريقه لسيادة العالم.

ففترة الطفولة الطويلة لم تكن مجرد فرصة للحياة الحلوة فحسب بل كانت أيضاً فسحة هائلة من الوقت يتعلم فيها الطفل كل ما يحتاجه من الخبرات والتجارب لمواجهة مشاكل عالمه بكفاءة أكثر. نحن ندعو هذه الظاهرة في عصرنا الحالي باسم «فترة التأهيل» ونقضيها غالباً في المدرسة أو تحت التدريب، لكن أسلافنا

القدماء لم يذهبوا بالطبع إلى هذا الحد. لقد اكتفوا بأداء مهمة التعليم عن طريق اللعب. هكذا شهد العالم ميلاد القرد العبقري.

مخلوق شبه مفكر يتبنى نظاماً اجتماعياً خاصاً من شأنه أن يمنح أطفاله فرصة كاملة لإنهاء تعليمهم قبل أن يضطروا لمواجهة ظروف الحياة الصعبة ومن شأنه بالتالي أن يفتح الباب على مصراعيه أمام المخ المعقد لكي يزداد تعقيداً وينمو بأقصى طاقته. إن الدماغ البشري قد ازداد خلال العشرين مليون سنة التالية أكثر من خمسمائة سنتيمتر مكعب بفضل نظامنا الاجتماعي، لكن المثير في الأمر أن هذا الحجم الهائل لم يساعدنا ـ فيما يبدو ـ على أن نكتشف أن «نظامنا الاجتماعي» المفضل قد كلفنا كثيراً جداً وأن التكاليف الباهظة لم يدفعها الرجل بل دفعتها المرأة. فالطفولة الإنسانية الطويلة حل غير ممكن إلاّ على حساب أحد الوالدين وبالطبع اختار الرجل أن يترك المرأة تدفع هذه الضريبة وحدها.. لقد حدث ذلك في البداية بطريقة عفوية جداً.

فالطفل لا يستطيع أن يبقى وحده في البيت.

لا يستطيع أن يطعم نفسه خلال الثلاث سنوات الأولى على الأقل.. لا يعرف كيف يتعلم اللغة أو بقية المهارات الاجتماعية الأخرى التي يحتاج إليها لكي يصبح عضواً في المجتمع. إنه في الواقع أعجز طفل عرفه هذا العالم بين أطفال الحيوانات الراقية أو غير الراقية على حد سواء وليس أمامه فرصة حقيقية لتفادي الموت ـ وبالتالي الانقراض ـ إلاّ إذا خفَّ أحد الكبار لنجدته. الأنثى كانت أقرب إلى الطفل من الذكر وقد خفت لنجدته.

حدث ذلك بين جميع أجناس الحيوانات الثديية على حد سواء. اختصت الأنثى بحمل الطفل وتغذيته بلبنها ورعايته لبعض الوقت. كل الإناث اكتسبن صفتهن من أداء هذه المهمة. الجاموسة

والبغلة والفأرة والزرافة والمرأة، لكن المرأة وحدها كانت تملك طفلاً غريباً لا يعرف كيف يعتمد على نفسه قبل مضي زمن طويل وكانت مضطرة للبقاء إلى جانبه حتى نسيت في نهاية المطاف أنها في الواقع مخلوق منفصل. لقد أصبحت دون أن تدري قطعة من الأطفال والبيت وتركتنا نبني فوق أكتافها النظام الاجتماعي الوحيد في العالم الذي يستغل فيه الذكر أنثاه وبقرته لأداء مهمة واحدة. إن نظام الأسرة هو الاسم الشرعي لهذه النتيجة المزيفة. لكن نظام الأسرة لم يولد بين يوم وليلة. ولم يولد في سنة أو مليون سنة بل استغرق في الواقع زمناً أطول بكثير.. وإذا كنت تحتاج إلى تحديد أفضل فإننا نستطيع أن نقول لك ـ دون رغبة في المفاجأة ـ إن القرد العبقري قد احتاج أكثر من ثلاثين مليون سنة قبل أن يتبنى نظام الأسرة بصورة نهائية وعندما تبناه في نهاية المطاف لم يكن ذلك النظام في الواقع يشبه أسرتنا الحالية إلاّ في خطوطه العريضة. إن القرد ـ في الدرجة الأولى ـ لم يتزوج بالحلال.

ولم يتقدم لخطبة قردته من والدها ولم يكتر فقياً لكي يقرأ له الفاتحة ولم يلبس جرده الحرير ويحضر لاختبار بكارتها في ليلة الجمعة، ذلك حدث فيما بعد بمثابة طقوس خاصة لإضفاء صبغة القداسة على الخدعة المهيبة أما ما فعله القرد منذ ثلاثين مليون سنة فقد كان أمراً مختلفاً إلى حد ما. لقد عضَّ قردته في أذنها.

هذا ما فعله، وما تفعله أنت الآن أيضاً وتدعوه باسم القبلة والمداعبة. لقد جلس في الشمس بجانب إحدى الإناث وشرع يقضم أذنها لكي يقنعها بلباقته في شؤون الحب. ورغم أننا لا نملك تسجيلاً مفصلاً لهذه اللعبة المشوقة إلاّ أننا نستطيع أن نضع أمامك خطوطها العريضة بدرجة تقارب اليقين.

كان القرد يخطب ود أنثاه أو تخطب أنثاه وده. لم يكن ثمة

فرق في هذه النقطة وكان ذلك يحدث دائماً في فصل الربيع. بعد هذه المقدمة يعلن أحد الطرفين عن رغبته في عض أذن الآخر ويلعقها مبدياً أقصى ما لديه من اللطافة. أحياناً تنتهي المغامرة نهاية سعيدة. أحياناً يأتي ذكر آخر ويعلن عن عزمه على العراك. مرة يحتفظ العريس القديم بغنيمته ومرة يخسر المعركة ويجر رجليه مبتعداً لكي يبحث عن عروس شاغرة. لم يكن ثمة فرق بين قردة وقردة. لم يكن ثمة أحد يخص أحداً. كان الإنسان يعيش في مجتمع مختلط تخص فيه كل الإناث كل الذكور لكن الأطفال بالطبع كانوا يجلسون دائماً على أكتاف أمهاتهم لأن أحداً منهم لم يكن يعرف والده على وجه اليقين. هذا هو المجتمع الذي تبناه الإنسان بعد ثلاثين مليون سنة من التجربة والخطأ.

إناث مغطاة بالشعر. ذكور مغطون بالشعر.. كل قرد يشبه جاره كما يشبه الغراب الغراب.. ليس ثمة علامات مميزة أو أسماء أو لغة. ليس ثمة فرق من أي نوع عن بقية مجتمعات القرود العادية سوى فرق مميت واحد. لقد كان الصغار في هذا المجتمع يحتاجون إلى أكثر من عشر سنين قبل أن يمكنهم الاعتماد على أنفسهم وكان هذا الوقت المتطاول يحرم أفراد المجتمع من الحياة البرية الطليقة. لقد كانوا مضطرين إلى الإقامة في مكان دائم بقدر الإمكان.

واحد يخرج للصيد وكسب القوت وواحد يقيم مع الأطفال أو يحملهم فوق كتفه ويتبع فريق الصيادين. أنا قلت لك واحد يحمل الأطفال لكني في الواقع أعني «واحدة» لأن الطفل يخص أنثى معينة وليس ذكراً معيناً ثم إن جميع الذكور يحتاجون لأيديهم في أداء شؤون أخرى غير حمل الأطفال.

هكذا قاد حجم المخ البشري إلى طفولة بشرية طويلة وقادت

الطفولة البشرية الطويلة إلى تبني نظام معين يختص فيه الرجل بصيد الأرانب وتختص فيه المرأة برعاية الصغار لكن الكارثة لم تكن قد بدأت بعد.. لقد كان الغوريلا في غفلة عما يخبئه له مخه الرهيب.

2

شيوعية المرأة

.. وقلت لك إن الحكاية بدأت بقرد وإن ذلك المخلوق بالذات لم يكن يختلف عن بقية القرود العادية في شيء سوى أنه أكثر منها جشعاً. لقد كان يتبنى نظاماً اجتماعياً خاصاً من شأنه أن يمنحه أكبر قدر ممكن من الطعام ويمنحه أفضل فرصة للحماية من أعدائه ويتركه يعيش عمراً أطول ثلاث مرات على الأقل من عمر أي قرد آخر، وكان قد باع حريته نفسها لكي يشبع هذا الجشع.

تخلى عن الغابة. هجر حياته الطليقة. ترك كل ما يربطه بالحياة اليومية واختار لنفسه مغارة واسعة في أحد الجبال وشرع يملؤها بالأرانب المجففة والثمار وجثث الفئران والجيف التي تتركها الضباع وراءها، ويملؤها طبعاً بالأطفال أيضاً لكي يحافظ على شجرة الأسرة.. معذرة لم يكن ثمة أسرة.

لم يكن ثمة شيء سوى قطيع من القرود. إننا لا نعرف في الواقع ما إذا كانت المغارة نفسها فكرة طرأت في ذهن أنثى أو ذهن ذكر ولكننا نحدس مجرد حدس أنها طرأت في ذهنهما معاً في وقت واحد تقريباً بمثابة حل لا مفر منه لمشكلة الأطفال.

فقد قلت لك إن الطفل في هذا المجتمع لم يكن يشبه طفل

الجاموس الذي يركض وراء أمه بعد خمس دقائق من مولده بل لم يكن يشبه أي طفل آخر في العالم.. لقد كان يحتاج إلى شهور بأسرها لكي يتعلم مجرد الجلوس. أما الركض وراء قوته فقد كان بالنسبة له معجزة لا تتحقق قبل ثلاث عشرة سنة في أحسن الظروف. إن المرء لا يعرف طريقة أفضل لانتظار هذا المخلوق البطيء ريثما يكتمل نموه سوى أن يضعه في مغارة ما ويجلس بجانبه. القرد العبقري اختار أيضاً هذا الحل.

اكتشف فكرة المغارة، استغرق ذلك منه بعض الوقت بالطبع، أعني مليوناً أو مليونين من السنين لكنه عرف الحل بشطارته المعهودة في نهاية المطاف وترك الغابة الموحلة التي آوته منذ انبثاق فجر الحياة وترك متاعبها القديمة ويمم وجهه شطر الجبل. كان المشهد من الخارج لا يفصح عن شيء سوى قافلة من القرود المتشردين لكنه ـ من الداخل ـ كان يحمل في طياته مصير هذا العالم نفسه. لقد خرج الإنسان من الغابة لكي يبني مدنه الحديثة ويربي أطفاله على مهل.

أول مدينة أقيمت داخل مغارة. لم تكن بيتاً واحداً بل مدينة كاملة لأنها ضمت جميع أفراد القطيع من زعيم القافلة الذي اختار لنفسه مكاناً خاصاً عند فوهة الكهف إلى أصغر قرد في الجماعة اختارت له أمه ركناً منزوياً لكي لا تدوسه الأقدام وتركته يلوح برجليه بفضل مئات الحفريات التي كشفت عن هذا النوع من الكهوف.

نعرف أن المغارة كانت تضم جميع الإناث وجميع الذكور معاً.

ونعرف أنها كانت تضم أيضاً مخزناً للطعام وحفرة لتخزين مياه المطر، وأن المخلوقات التي عاشت هنا لم تكن تفتقر إلى حاسة

النظام لكنها بالتأكيد لم تكن تتبنى أي نظام خاص بشأن العلاقة بين الذكر والأنثى ولم تكن تفرق بينهما بأي ميزات اجتماعية ولم تكن تعتقد أنها في حاجة إلى هذه التفرقة. لقد حدث ذلك في عصر متأخر جداً، أما في البداية فقد كان القرد الذكر يعتبر قردته الأنثى مجرد مواطن آخر. لم يكن أحد متزوجاً من أحد.

لم يكن ثمة مأذون متخصص في عقد الزيجات. كل الإناث في الكهف تخص جميع الذكور في الكهف نفسه وفي بقية الكهوف أيضاً. إن كلمة «تخص» لا تؤدي المعنى بالدقة المطلوبة فالواقع أن علاقة الذكور بالإناث كانت خالية كلية من فكرة الملكية، وعندما أصبحت نوعاً من الملكية في نهاية المطاف كان ذلك في حقيقة الأمر لأسباب طارئة لم يضعها أحد في حسابه قط. لقد كان هذا المجتمع شبه الفاضل يحمل في داخله أمراضاً مميتة خافية عن العيون.

كان يتبنى نظاماً شيوعياً خالياً من الفجوات وكان ـ خلال خمسة ملايين سنة كاملة ـ قد طوّر هذا النظام إلى درجة عالية جداً من التخصص. أصبح الرجل صياداً محترفاً وصانع أسلحة ومعلماً للصبيان الذكور وأصبحت المرأة مربية محترفة وطباخة ومعلمة للبنات، وساعد هذا التخصص على ازدهار المجتمع وزيادة تعداده حتى احتل القرود جميع كهوف المنطقة القابلة للسكن وانطلقوا يحتلون بقية العالم منهين صراعهم الأزلي مع معظم أعدائهم من الحيوانات الأخرى وفي بداية العصر الجليدي الأخير أنهى القرد هذه المهمة الدموية بنجاح ولم يعد يملك ثمة عدواً واحداً يهدد حياته بالخطر سوى مواطنه القرد. إذ ذاك بدأت مأساة المرأة.

فالصراع بين أبناء الجنس الواحد ظاهرة لا تحدث إلا من أجل الأنثى. إن هذه الحقيقة تستطيع أن تمنح المرأة شعوراً خفياً بقليل من

الفخر لكنها ستفقد المتعة الصغيرة فوراً عندما تسمع بقية الحكاية المؤلمة فالصراع من أجل الأنثى لم يحدث في الواقع من أجل الأنثى حقاً بل من أجل الذكر وحده. إنها لعبة غريبة ما تزال تحدث كل يوم أمام أعيننا.

فالفأر لا يزاحم الفأر على قطعة الجبن لكنه يذهب إلى حد أن يقطع عنقه بأسنانه لكي يسرق منه فأرته. الأسد لا يقتل الأسد لكي يأخذ طعامه لكنه يقتله ألف مرة ـ إذا لزم الأمر ـ لكي يأخذ لبوءته. القط لا يصارع القط على قطعة الرئة بل يموء في وجهه ويتركه لحال سبيله لكنه ـ أحياناً ـ يفقأ كلتا عينيه بضمير مستريح لكي يظفر بأنثاه. لعبة غامضة تمارسها جميع الحيوانات بما في ذلك الإنسان، وتبدو لأول وهلة ذات علاقة وثيقة بالرغبة في إشباع غريزة جنسية عادية لكنها في الواقع أعمق غوراً من مجرد الرغبة في الإشباع. علم النفس المعاصر وضع اصبعه على السر.

فإخصاب الأنثى لا يحدث إلاّ من ذكر واحد. هذه حقيقة بسيطة حقاً لكن أحداً لم يعرفها على أي حال. لم يكتشفها الحيوان قط ولم يكتشفها الإنسان أيضاً إلاّ في عصر متأخر جداً ومع ذلك فقد وجدها كل مخلوق ـ دون أن يجدها ـ سارية في دمه بمثابة جزء غامض من روحه وبقائه وأحس بها تدفعه في إلحاح إلى أن يموت ـ أحياناً ـ دفاعاً عن حقه في إحداث الإخصاب دون غيره من الذكور. إنه يريد أن يجدد نفسه وليس جنسه كله كما اعتقد العلماء في البداية. فذكر الجاموس البري لا يقدم غالباً على قتل معظم الذكور في القطيع لكي يستمتع وحده بإخصاب كل الإناث. الجمل يقاتل أحياناً حتى الموت لكي يطرد الجمال الذكور من قطيعه. بعض الأسماك تتبارز حقاً إلى آخر ذكر في السرب ثم يبدأ ذلك الذكر في إخصاب ملايين الإناث. إنه من الواضح أن

المشكلة التي تهم الذكر لا تتمثل في بقاء الجنس بأسره بل في تجديد بقائه وحده بالذات، وإذا كانت هذه الأنانية المذهلة تستطيع أن تقود إلى أي مكان.. فإنها بالتأكيد لا بد أن تقود إلى مبارزات دموية بين الذكور داخل الجنس الواحد. ذلك بالضبط ما حدث في نهاية المطاف وقاد إلى تخصيص أنثى معينة لكل ذكر معين عن طريق النظام الذي ندعوه الآن «بالزواج» الشرعي. فقد تقاتل الرجال بضراوة في عصر شيوعية المرأة.

غرقوا في حمام من الدم وأدى الصراع أحياناً إلى إفناء مجتمعات بأسرها بعد أن قتل الذكور بعضهم ومات الإناث والأطفال جوعاً.. كان الرجل الشاطر لم يكتشف بعد أنه يستطيع أن يشبع غرائزه الجنسية بدون قتال وكان يقف مستعداً لأن يفقد فروة رأسه من أجل أن يخصب أكبر عدد من إناث القطيع.. ولأن الربيع فصل الإخصاب فقد كان هذا الفصل بالنسبة «لمجتمعنا الإنساني» موسم مبارزة دامية تثير الشفقة. إن الرجل ـ الذي يعتبر نفسه الآن أحسن بضاعة في السوق ـ كان ذات مرة على وشك أن يفني جنسنا بأسره مقابل قردة مغطاة بالشعر، بل إنه في الواقع أفنى أكثر من نصفه.

إننا لا نعرف عدد الموتى بالضبط ولا نعرف عدد القتلة أيضاً لكننا نستطيع أن نجازف ببعض الحدس. فالكهف الذي يضم عشر إناث وعشرين رجلاً كان يفقد ـ على الأقل ـ نصف سكانه في موسم الإخصاب وكان الضحايا دائماً من الذكور الزائدين.. ذلك حدث لأن الذكور من أبناء جنسنا ـ مثل الذكور من جنس الضباع ـ كانوا يستطيعون أن يفعلوا كل شيء معاً ما عدا لعبة بسيطة بالذات، أن يشتركوا في امرأة واحدة.. ولقد كاد هذا السلوك الخالي من الحكمة أن يضعهم في درجة واحدة مع الضباع

فوق سلم التطور لولا أن أحداً ما في مكان ما هداه الله إلى فكرة الزواج.

متى حدث ذلك.. لا أحد يعرف.. إن الحفريات لم تكشف لنا بعد أول وثيقة زواج بين قرد وقردة لكي نقرأ تاريخها بالضبط لكننا نعرف كل شيء عن بقية التفاصيل. فالزواج لم يكن حلاً لمشكلة المرأة بل لمشكلة الرجل، ولم يكن عملاً موجهاً «لصون شرف المرأة» بل لتوفير دماء الرجل، ولم يظهر أحد بين القرود لكي يزعم شيئاً من هذه الخدع اللفظية أيضاً. إن كل امرىء قد اختار قردته في صمت لأنه في الدرجة الأولى لم يكن قد تعلم الكلام بعد، ولأنه في الدرجة الثانية كان يريد أن يترك لأحفاده من الذكور شيئاً يكتبونه في الصحف عن «عفة المرأة التي تعيش حرة كريمة تحت وصاية الرجل»، أما القرد نفسه فقد كان يعرف الحقيقة المحزنة بالتفصيل، وكان لم يكتشف بعد أنه يستطيع أن يخفف هذا الحزن بقليل من الكذب.

أول كذبة في التاريخ وقعت في نهاية هذا العصر.. لقد انطلق قرد ما يطارد قردة ما لكي يقنعها بالزواج منه.. وقال لها ـ فيما قاله ـ إنه يريد أن يحميها من أعدائها. كان يعني الرجال الآخرين بالطبع، وكان قد نسي متعمداً أن الرجال الآخرين ليسوا أعداء المرأة بل أعداؤه وحده فقط. لكن المرأة صدقت هذه الخرافة الطارئة وتعلمت ومنذ ذلك اليوم أن كل الرجال ـ غير زوجها ـ خطر عليها وعلى وجودها وشرفها.. المدهش في الأمر أن الرجل لم يتعلم قط أن جميع النساء ـ غير زوجته ـ خطر عليه وعلى وجوده وشرفه الرفيع. هذه الحقيقة البسيطة لم تخطر بباله حتى الآن لأسباب مجهولة تقريباً..

3

القفص

وقلت لك إن عصر شيوعية المرأة كاد أن ينتهي بانقراض الرجال لولا أن أحداً ما في مكان ما خف لنجدتهم بفكرة طارئة. إننا لا نعرف اسم ذلك الفيلسوف ولا نعتقد أننا سننال هذا الشرف ذات يوم لكننا نعرف عنه حقيقة مهيبة واحدة.. لقد صمم لنا مجتمعنا المقدس الحالي بكل تفاصيله.

.. حرفته ـ أغلب الظن ـ شيخ قبيلة..

ومشكلته ـ بدون شك ـ كانت تتمثل في إنقاذ رجاله الصيادين من معاركهم الدموية بشأن الإناث. فقد كان من الواضح أن الجنس الإنساني بأسره مهدد بالانقراض تحت وطأة هذا الشبق المؤلم وكان من الواضح أكثر أن نصفه قد انقرض حقاً. شيخ القبيلة خف لنجدتنا بإيجاد الحل.

معذرة! .. إن كلمة «خف لنجدتنا» سوف تجعلك تتصور أنه طرقع اصبعه ووجد لنا الحل لكن ذلك، في الواقع تصور خاطىء. لقد استغرق الأمر منا حوالي نصف مليون سنة تقريباً واستغرق بالذات كثيراً من المحاولات والتجارب ثم اكتشف مجتمعنا منفذاً حقيقياً في الزحام. أصبح شيخ القبيلة وصياً على جميع الإناث.

فرض نفسه بقوة ذراعيه وهيبة مركزه. وضع كل أنثى في المغارة تحت وصايته الخاصة لكي يقطع الطريق أمام الذكور، وبعد ذلك حمل عصاه في يده وشرع يوزع الإناث على الذكور من جديد. لم يشترط ـ هذه المرة ـ أن يتقاتل قرد وقرد، لم يطلب من أحد أنيثبت له قوته العضلية لكي يعطيه امرأة، بل اشترط أن يثبت الذكر تفوقه في الصيد فقط. هكذا بدأ مجتمعنا المقدس الحالي.

الرجل الذي يحضر صيداً أكبر ينال امرأة بأمر من شيخ القبيلة، والرجل الذي يحضر فأراً ميتاً ينام في العراء بأمر من شيخ القبيلة أيضاً. لم يعد ثمة حاجة إلى العراك. لم يعد المجتمع مضطراً إلى خسارة ذكوره في موسم الإخصاب. أصبح هذا الموسم فرصة لزيادة مخزون الطعام بطريق المنافسة وأصبحت الأنثى مصدراً لإطعام المجتمع بعد أن كانت مصدراً لمتاعبه. لقد ولد المجتمع الإنساني وولدت معه فكرة المهر.

الصياد الكسول الذي يريد أن ينال امرأة بالمجان يقف ضده جميع الذكور ويكسرون رأسه بضمير مستريح. الصياد الشاطر الذي يريد أن يتسلل خفية في الظلام ويغري أية امرأة بحبه يقف ضده جميع الذكور ويربطونه بحبل ويرجمونه بالحجارة حتى الموت. كل رجل يشتري امرأته من شيخ القبيلة بعرق جبينه. كل رجل يحترم ما اشتراه رجل آخر من شيخ القبيلة بعرق جبينه. لا أحد يعتدي على بضاعة الآخر. لقد كان القرد العبقري يكتب كتاب أخلاقنا دون أن يدري.

في نهاية هذه الفترة استقر النظام الجديد وأصبح جزءاً من مجتمع الإنسان ولم يعد شيخ القبيلة في حاجة إلى أن يحرسه دائماً بنفسه. لقد تخلى عن مهمته المرهقة في الوصاية على جميع الإناث وترك لكل رجل مهمة الوصاية على بناته ومقايضتهن

المرأة أن تتفضل بدخول القفص. إن الرجال ـ بدون اللغة ـ لم يكن بوسعهم الحصول على هذا الصيد الثمين.

فاسم العائلة مجرد كلمة صغيرة لكنه بدون هذه الكلمة يفقد الرجل وصايته على المرأة لأنه لن يعرف قط أنها تخصه أو لا تخصه. الحاج الزروق يصبح وصياً على بنت الحاج حمد والحاج حمد يصبح وصياً على امرأة الحاج الزروق. نظامنا ينهار من أساسه فنحن نحتاج دائماً إلى علامة ما نحدد بها ملكيتنا للأشياء بالنسبة للبقرة ـ التي لا تفهم لغتنا ـ نضع وسمتنا على الجلد. بالنسبة للمرأة ـ التي تفهم لغتنا لحسن حظها ـ تكتفي بلقب العائلة الكريمة لكننا كنا مستعدين لأن نضع وسمتنا فوق جلدها لو لزم الأمر. اللغة أنقذت المرأة من سفود الوسم لكنها وضعتها تحت رحمة سفود أسوأ.

أعني وضعتها تحت رحمة ثقافتنا الرجالية.

أعطتنا فرصة مميتة لكي نفتح دماغها من الداخل ـ دون إراقة دماء ـ ونحشوه بكل ما يحلو لنا من المعلومات المرغوب فيها. نغسل مخها بدعاية رجالية غير محايدة. تصوروا ماذا كان بوسعنا أن نفعل بدون اللغة؟

أنا لا أريد أن أجرب، لكن التجربة مفتوحة أمام كل رجل هنا يجلس فوق شنباته صقران. دعوه يحاول أن يقنع عجوزه ـ بدون لغة ـ أن الجلوس فوق السدة يعني أنها حرة كريمة.. دعوه يقنعها عن طريق يديه أن بقية الرجال أعداؤها وأن وجهها عار لا يجوز فضحه أمام الناس وأن مهمتها في هذا العالم أن تطبخ الحرويسة وتأكل بالهنا وتغسل سراويل زوجها الفاضل.. كيف يقول المرء كلمة «زوج فاضل» بدون لغة؟

الطريق مسدود نظرياً لكنه ـ للأسف ـ مفتوح على مصراعيه

في الواقع. إننا نستطيع أن نتكلم في أي وقت نشاء ونستطيع بالذات أن نتكلم بفصاحة مهيبة، وقد تكلمنا بلا انقطاع منذ خمسين ألف سنة على الأقل وقادتنا هذه الثرثرة المتطاولة إلى دهليز معقد من التقاليد والأفكار المتوارثة والأخلاقيات والحكم والخدع اللفظية. إن أخلاقياتنا عمل مستحيل بدون اللغة.

فأنت لا تستطيع أن تعبر عن «الشرف» بيديك فقط.

لا تستطيع أن تعبر عن «العفة والعزة والحرية والكرامة وبقية مثلك العليا» باستعمال يديك الكريمتين إنك ـ بدون اللغة ـ مجرد مخلوق أخرس، والمخلوق الأخرس يمكنه أحياناً أن يمتلك أخلاقيات على درجة عالية من المثالية لكنه بالتأكيد لن يعبر عن هذه الأخلاقيات بضمير المذكر وحده كما نفعل نحن في مجتمعنا الحالي ولن يكون بوسعه أن يجد ثمة فرقاً بين المؤنث وبين المذكر. إن كل شيء هنا يقاس عندئذ بنتائج الأعمال وحدها. هذا لم يحدث في مجتمعنا الثرثار.

عرفنا الفرق بين المؤنث وبين المذكر. عرفنا الفرق بين شرف البنت وشرف الولد. كنا قد انحدرنا من مغارة القرود التي شهدت شيوعية المرأة وصراع الذكور، وتلقينا درساً مروعاً مقابل شبقنا الجنسي الساذج، وكنا نضع هذا الدرس نصب أعيننا عندما بدأنا في كتابة سفر أخلاقياتنا. لقد كان أول ما يشغلنا أن نوقف المذبحة بين الذكور وكان القانون وحده كفيلاً بتحقيق هذه المعجزة.

فمن كتب القانون؟

أنا لا أرغب في المفاجأة لكني مضطر أن أقول لك إن الرجل لم يكتبه. ليس الرجل الذي نعرفه الآن. ليس إنساننا المهذب بل كتبه القرد القديم وحده. إنك لا تحتاج إلى الجدال معنا حول هذه النقطة فنحن في الواقع نملك جميع بصماته على عنق الضحية.

نملك ظاهرة «المهر» التي كانت ـ ذات يوم ـ حلاً لجأ إليه القرد لكي ينقل الصراع على الأنثى من معركة دموية بين الذكور إلى مسابقة اقتصادية في صيد الأرانب أو الدببة طبقاً لمهارة الصياد.

نملك ظاهرة «غشاء البكارة» التي كانت ـ ذات يوم ـ مجرد رمز للذكر على أنه وحده يقوم بإخصاب الأنثى دون غيره من الذكور لكي ينبسط أكثر ويعرف أن نسله الكريم بالذات قد كتب له البقاء.

نملك ظاهرة أخلاقياتنا التي تقيس الرجل من صيده في المصرف والتي انحدرت معنا من مغارتنا القديمة عندما كان القرود يقيسون الصياد بحجم ما يصطاده من الدببة.

نملك مثلنا التربوية التي تهدف إلى تربية الذكور على الفحولة والسيطرة وتربية الأنثى على الخنوع والطاعة، لكي يصبح لدينا أكفأ الصيادين الشداد وأحسن الطباخات في وقت واحد.

نملك إحساس الرجل بالذل الصاعق إذا خانته امرأته وإحساسه بالفخر الخفي إذا خانها هو متناسياً أن ذلك كله مجرد شعور أهوج مترسب في أعماقه عندما كان قرداً صياداً يحب أن يصطاد كل شيء بنفسه، ويكره أن يستولي صياد آخر على حصيلته. قلت لك إننا نملك بصمات أصابع الجاني، ونعرف هويته بالضبط ونعرف أنه مجرد قرد أخرق مفتقر إلى النبالة الإنسانية ومجنون وأناني وساذج لكن ذلك كله لا يساعدنا على أن ننقذ أمهاتنا وبناتنا من فلسفته المريضة. إننا في الواقع لا نستطيع أن نفعل حياله شيئاً بما في ذلك أن نقتله، فالقرد المضحك يموت بنفسه كل يوم ويولد كل يوم أيضاً. إنه يسري في ثقافتنا. أي ثقافة الرجال. الفكر الذي يتكلم دائما بضمير المذكر فقط. الفكر الذي يتعامل مع العالم من وجهة نظر واحدة. إننا لا نستطيع أن نرى القرد فينا ـ مجرد الرؤية ـ ما

4

الحل عند المرأة

وقلت لك إن مهمة هذا الحديث أن تضع بين يديك سرداً شبه مفصل للأحداث التي أدت إلى نشأة مجتمعنا ومنحته شكله الحالي وطبعته بطابع الذكر دون الأنثى. أنا أعتقد أن الحديث قد أدى مهمته عند هذا الحد. فالخطوط العريضة تعرضت لها بالتفصيل والتفاصيل ذاتها أغفلتها متعمداً لأنه ليس بوسعي ـ أو بوسع أحد آخر ـ أن يلم بها بدرجة من الوضوح إلاّ إذا كان يزمع أن يكتب بضعة مجلدات كل يوم. إن حكاية رحلتنا طويلة إلى حد لا يحتمل.

لكن فحواها صغير إلى حد لا يحتمل أيضاً. إنه في الواقع جملة عادية واحدة: الإنسان ـ بعكس التمساح ـ يعتمد على مخه أكثر مما يعتمد على عضلاته. المخ يحتاج إلى فترة تعليم طويلة جداً.. التعليم يحتاج إلى مقر دائم ومعلم دائم. الرجل حلّ هذه المشكلة على حساب المرأة وبنى لها بيتاً وتركها مع الأطفال وذهب لكي يصطاد للعائلة ما تأكله.. بعد عشرة ملايين سنة أصبح هذا النظام وصفة اجتماعية مقدسة. هذه حكايتنا من الألف إلى الياء.

ليس ثمة ألغاز، ليس ثمة خدع لفظية مهيبة. كل شيء يراه المرء

بمجرد أن يلتفت حوله ومع ذلك فإن أحداً لا يريد أن يلتفت حوله حتى بالصدفة. المرأة لا تستطيع أن تفعل ذلك لأنها مغمضة العينين.. والرجل لا يريد أن يفعله أيضاً لأنه مثل حصان الحنطور ـ مشغول بالنظر في اتجاه واحد. إن مجتمعنا يستعمل عينيه فقط لكي ينظر إليك بازدراء إذا سمع أنك تتفرج على عيوبه، فدعني أنل من وقتك دقيقة لكي أعرض أمامك وجهة نظري وأتركك بعد ذلك للحنطور.

إنني لا أنادي بخروج المرأة من البيت، لا أنادي أيضاً ببقائها في البيت، لا يهمني ما تريد المرأة أن تفعله بجثتها، ذلك أمر يخصها وحدها. كل ما أنوي أن أقوله هنا أن ذلك أمر يخصها وحدها حقاً.

ليس من شأن الذكر أن يفرض عليها وصايته. إن الأسباب التي دعته ـ ذات مرة ـ لكي يسبغ عليها هذا الجميل قد انتهت الآن إلى الأبد كما انتهت علاقتنا بالقرود. وإذا كان الذكر الوطني لا يريد أن يسلم بهذه الحقيقة المسطحة فإنه في الواقع لا يفعل ذلك معتمداً على منطق معقول بل على قوته العضلية وحدها ومركزه الوحيد في المجتمع. إنه سلوك انتهازي غير مشرف لكننا نفهمه باعتبار أن الرجل أيضاً حرّ في اختيار سلوكه.

من جهة أخرى ليس من شأن الرجل هنا أن «يمنح» المرأة حقوقها. إن الخطباء الذين يقفون فوق كل منصة مطالبين الرجل بأن «يعيد» للمرأة حقوقها مجانين فقط، فالرجل لم يأخذ من المرأة حقوقها. لم يقل لها: «تعالي يا سيدي، هاتي حقوقك واجلسي فوق السدة» اللعبة لم تكن بسيطة إلى هذا الحد.

ففي الدرجة الأولى لم تملك المرأة حق المساواة مع الذكر في أي يوم من الأيام، وليس بوسعها أن تقف الآن وراء منصة ما

وتطالب «بإعادة حق» لم تكتسبه قط. إن المساواة حق جديد مكتسب وإذا كانت المرأة ترغب في أن تناله فإن عليها أن تمد يدها وتناله لكنها لا تستطيع أن تطالب الرجل بأن يعيده إليها إلاّ بقدر ما تستطيع أنت أن تطالب محتالاً رديء السمعة بأن يعيد إليك شيئاً لم يسرقه أصلاً. إن الرجل لم يسرق حقوق المرأة متعمداً أو غير متعمد بل وضعها في جيبه نظام اقتصادي معين. وإذا كانت المرأة تنوي أن تنهي هذه اللعبة حقاً فإنها في الواقع لا تملك سوى فرصة واحدة ممكنة، أن تستبدل هذا النظام الاقتصادي نفسه بنظام مختلف يسمح بتسرب حقوقها الضائعة إلى جيبها مرة أخرى. ليس ثمة مفر من هذا الحل.

فنظامنا الاقتصادي الحالي من تصميم الرجال وحدهم. إنه معدّ خاصة لكي ينال فيه الرجل حق كسب القوت وتنال فيه المرأة حق الانتظار في البيت. ليس ثمة ظلم أو عدل وليس ثمة مبرر للشكوى أيضاً. إن المرأة تملك حقوقها كاملة داخل هذا النظام ما دامت تريد حقاً أن تنتظر في البيت.

أما إذا كانت تعتقد أن هذه المهمة قد أسيء تفسيرها وأن الرجل قد فهم انتظارها له فهماً غير عادل وشرع يعاملها بمثابة وصيفته الخاصة ومربية أطفاله فقط. إذا كانت المرأة تحس بالظلم في مجتمعنا فإن عليها أن تغير نظامه الاقتصادي الحالي تغييراً جذرياً. ليس ثمة حل آخر.

فالمساواة بين الرجل والمرأة مستحيلة في أي مجتمع لا تتساوى فيه فرص الكسب. ومجتمعنا يتبنى نظاماً معداً لكي يكسب فيه الرجل قوته مستقلاً عن المرأة وتكسب فيه المرأة قوتها معتمدة على الرجل. وما دامت هذه الحقيقة البسيطة قائمة فإن المساواة في مجتمعنا أمر مستحيل وغير منطقي في وقت واحد. إننا نستطيع أن

نسمح للمرأة بالتسكع في الشوارع. نستطيع أن نتركها تذرع الدنيا عارية الركبتين وتبيع جسدها على كل رصيف وتفعل كل خارقة تخطر ببالها لكن ذلك كله لن يجعلها تحس بأنها متساوية لنا إلاّ إذا كانت مجرد بنت مجنونة لا تفهم المساواة أصلاً. أما إذا كانت تفهم ذلك بأي درجة من الوضوح فسوف تكتشف فوراً أن تسامحنا تجاهها على هذا النحو لا يختلف في شيء عن تسامحنا تجاه كلبتنا الضالة. إن المساواة الحقيقية لا تبدأ من هنا.

بل تبدأ من إتاحة فرصة عادلة أمام الطرفين لكي يحققا اكتفاءهما الذاتي. يصبح كل طرف منهما مستقلاً عن الآخر كلية. يصبح ارتباطهما ـ عندما يرتبطان ـ التقاء حراً بين إرادتين وليس فرضاً قاهراً من إرادة الذكر على إرادة الأنثى. إن ذلك لا يعني في الواقع سوى أن نربأ بعلاقة الرجل والمرأة أن تكون علاقة مصلحة وخبز وشهوة ونقود ونرفعها إلى مكانها الإنساني اللائق بها لكي تصبح ـ بعد أن حان الوقت ـ التقاء عقلياً مقاماً على التفهم والإرادة الحرة.

إني لا أرغب في هذا الأسلوب الخطابي رغبة عارمة ولا يضرني أن أتخلى عنه وأعرض أمامك وجهة نظري مرة أخرى بلغة أكثر بساطة.. فقط لا تدع الحقائق البسيطة تصيبك بالدهشة: إن المرأة يربيها الرجل بنقوده ويبيعها لرجل آخر بنقوده ويطعمها الرجل الآخر بنقوده أيضاً ويكسوها ويعالجها ويدفنها أو يشتري لها تذكرة الحج بنقوده. هل تعتقد أن هذا الرجل يستطيع ذات يوم أن يخلق ثقافة تتساوى فيها المرأة والرجل. هل تعتقد أن هذه السيدة تستطيع أن تفعل شيئاً مجدياً سوى أن تقف ذات مرة وراء منصة ما وتتسول من الرجل حقوقها؟ أنا لا أسألك بل أقول لك إن هذا ما يحدث في مجتمعنا وإنه سيحدث إلى الأبد حتى يتغير نظامنا

الاقتصادي بمعجزة ما. ذلك يعني حتى تكف المرأة عن التسول من بيت رجل إلى بيت رجل وتتعلم ـ بمعجزة ما أيضاً أن النقود لا يكسبها الرجال بشنباتهم بل بعرق جبينهم وأنها بدورها تملك جبيناً يستطيع أن يعرق.

المرأة هنا لا بد أن تكف عن التسول المقنع. لا بد أن تحقق اكتفاءها الذاتي وتكسب عيشها بذراعها الأبيض وتمنح نفسها وزوجها فرصة عادلة لكي يقيما معاً علاقة إنسانية واضحة لا تعتمد على تبادل الخدمات مقابل رغيف الخبز والحب فوق السدة بل تعتمد على تبادل مشاعر الود واللقاء العقلي أولاً. إنها لا يجوز أن تطالب بمساواتها مع الرجل ـ ولن تنال هذه المساواة أيضاً ـ ما دامت ترضى بأن تمد يدها لكي تنال كسرة الخبز مقابل العناية بأطفالها.

فالعناية بالطفل واجب مشترك بين الرجل وبين المرأة معاً. لا أحد يجوز أن ينال في مقابله أجراً. لا أحد يجوز أن يتخذه حرفة لكسب العيش، وإذا كانت المرأة لا تنوي أن تفهم هذه الحقيقة البسيطة فإنها أيضاً لا تملك ثمة سبباً يدعوها إلى إبداء الضيق من الإقامة في البيت. إن عليها أن تلزم مكانها فوق السدة وتؤدي حصتها في العناية بالأطفال وتؤدي حصة الرجل في العناية بهم أيضاً مقابل ما تستهلكه من نقوده. هذا عمل عادي ومعترف به لكنه بالتأكيد يتوقف كلية على بقاء المرأة في البيت.

أما إذا كانت سيدتنا الليبية تحس بالظلم حقاً وتعرف أن عملها الحالي لم يقدها في الواقع إلى أي مكان سوى العزلة والخنوع، فإنها مطالبة بأن تبحث لنفسها عن عمل أفضل مطالبة بتغيير مجتمعنا بحيث يصبح البيت مشكلة تخص الرجل كما تخص الأنثى سواء بسواء.

يصبح كنس البيت وغسل الأواني ومطاردة الجرذان في دار الفحم واجباً مشتركاً بين الرجل الأحمر العينين وبين امرأته. يصبح الطفل في ليبيا ـ لأول مرة في تاريخه العجيب ـ مشكلة الرجل والمرأة معاً. تتنازل السيدة عن عرشها القديم في مملكة البيت وتشترك مع عبدها الذكر في إدارة شؤون المملكة صوتاً مقابل صوت. في الصباح تتفضل السيدة بالجري وراء لقمة العيش لكي تشترك أيضاً في مصروف البيت.

ليس ثمة حلّ آخر..

إن خروج المرأة للعمل ليس بدعة أوروبية بل حتمية تاريخية لا مفر منها. لكن ما فعلته المرأة الأوربية بهذا الحق الطبيعي هو وحده البدعة الأوروبية ونحن لا نحتاج إلى أن نفعل مثلها. إننا نعرف أخطاءها، ونعرف أنها عاشت تجربة جديدة على العالم ولم يكن بوسعها أن ترى الخطأ إلاّ بعد ارتكابه. لكننا نعرف أيضاً أن الإنسانية لن تلدغ من بدعة واحدة مرتين. إننا سنجد طريقنا بلا عناء. كل ما نحتاج إليه هو أن نبحث في الاتجاه المطلوب. ونرفض خداع أنفسنا بوجهة نظر واحدة ونرفض أن نتهم الرجل بتعمد إذلال المرأة ونرفض أيضاً أن نربت على كتف المرأة ونواسيها بدمعة تمساح. ليس ثمة مبرر لتبادل التهم أو الدموع. إن الطريق يجده المرء بالمشي.

والسيدة تستطيع أن تمشي وتستطيع أن تعرف مقدماً أن أحداً لم يسرق منها حقوقها برضاه وأن أحداً لن يعطيها حقوقها برضاه أيضاً. إن عليها أن تكسب ما تعتقد أنه يخصها بعرق جبينها وعليها أن تتعلم بعض الشجاعة بدل الفصاحة في إلقاء الخطب، فليس ثمة ما يدعو إلى إضاعة الوقت في الكلام. إن الطريق يقع أمام أنفها مباشرة، وهذه حقيقة نستطيع أن نؤكدها لها في أي

وقت تشاء ونؤكد لها أيضاً أن رغبتها في الاعتماد على نفسها ليست رغبة فاسقة وليست ضد مصلحة مجتمعنا بل حل معقول وطبيعي لمشكلة ثقافتنا الرجالية. لكننا لا نستطيع أن نفعل من أجلها شيئاً آخر سوى أن نتركها وشأنها فوراً. إننا لن نحملها فوق أكتافنا. ولن نتبرع بحمايتها من «الذئاب» لأنه في الواقع ليس ثمة ذئاب غيرنا، ولن نقول لها شيئاً من شأنه أن يعني أن المرأة تملك وصياً عليها غير ضميرها وحده. إننا لا بد أن نثق في المرأة إذا كنا نثق في أنفسنا، أما الزعم بأنها عرضة لخدع الشيطان لأنها أنثى فهذه كذبة رديئة ـ أو على الأقل نصف حقيقة ـ لا يجوز أن نتركها تخدعنا.

إن الشيطان يحتاج دائماً إلى رجل لكي يخدع امرأة، وإذا كنا قد نسينا هذه الحقيقة في مجتمعنا الحالي الذي يرى الحقائق بعين الرجل وحده، فإننا نملك فرصة سانحة للشفاء من هذا النقص إذا سمعنا أيضاً وجهة نظر المرأة. إننا لا يجوز أن نصدر حكماً بالغياب.

ولا يجوز أن نعتبر نساءنا شراً محققاً غائباً. إن ذلك يبدو ببساطة مثل كلام الأطفال عن الأشباح. والمرء لا يتوقع هذا السلوك من رجال مثلكم يلعبون بالصقور فوق شنباتهم. انظروا للغولة في عينيها. لا تخافوا، لا ترتعدوا.. إنها قردتكم القديمة التي كانت تسلخ لكم الأرانب في مغارة القرود لكي تنعموا باللحم وتتركوا لها العظام. كل ما حدث أنها لم تعد قردة.

ولم تعد ترضى بالعظام.

7 أغسطس 1971

الكابوس

ذات مرة ماتت السيدة «ف. م».

قصف عنقها ملك الجان الذي وضع فوق رأسها القدر الساخن في المطبخ فجعلها تسقط جثة هامدة على بعد شبر واحد من موقد النار. وقد نسيت السيدة «ف .م.» ـ في غمرة ذعرها من الموت المفاجىء ـ أن تلقي عصا المعصدة من يدها مما اضطر طبيب البلدية إلى رفض السماح بالدفن حتى يقوم أحد ما بانتزاع تلك العصا القبيحة من قبضة السيدة الميتة.

وقد بذل سكان الزقاق جهداً مضنياً لتلبية أمر البلدية، وعملت النساء طوال الليل في دهن يد السيدة «ف.م» بالزيت ورغوة الصابون لكي ترخي قبضتها عن عصا المعصدة، فيما استعان شيخ المحلة باثنين من الفقهاء الذائعي الصيت وتركهما يجلسان عند رأس السيدة «ف.م.» ويقرآن كل ما لديهما من التعاويذ السحرية التي من شأنها أن تعمل على استعادة المعصدة. ولكن شيئاً لم يحدث. وقد ظلت السيدة «ف.م.» تشد قبضتها في إصرار مريب على العصا الملوثة ببقايا الدقيق المعجون مزمعة أن تحملها معها إلى الجنة بمثابة تذكار من زقاقنا.

وكان ذلك مجرد مؤامرة لتشويه سمعتنا في الآخرة.

وكان طبيب البلدية قد أدرك هذه الحقيقة على الفور، وأعلن لسكان المحلة في اليوم التالي أنه لن يسمح بدفن تلك العجوز الفظيعة حتى تتخلى عن عصا المعصدة، فالبلدية لا تستطيع أن تحتمل تسرب التذكارات من زقاقنا إلى أي مكان، ثم إن المرء لا يحتاج إلى أن يحمل معه عصا المعصدة بالذات لكي يتذكر زقاقنا.

وكان ذلك يعني أن البلدية تشك في نوايا السيدة «ف.م.».

وكان سكان المحلة ـ الذين لم يفهموا قط لماذا لا يستطيع المرء أن يموت حاملاً عصا معصدة ـ قد قرروا في الخفاء أن يحملوا السيدة «ف.م.» وعصا المعصدة معاً إلى المقبرة خلال الليل دون حاجة إلى إذن الدفن. وقد تسربوا في المساء واحداً بعد الآخر إلى غرفة السيدة الميتة ولفوها في ملاية السرير وحملوها فوق أكتافهم مزمعين إلقائها في أول حفرة يجدونها في المقبرة. وقد عادوا بعد ذلك إلى بيوتهم متعاهدين على كتمان السر عن نساء الزقاق وطبيب البلدية معاً. ولكن السيدة «ف.م» عادت بنفسها في اليوم التالي حاملة ملاية السرير فوق رأسها وعبرت الزقاق تحت بصر الرجال المدهوشين وانطلقت إلى بيتها مرفوعة الرأس.

كانت قد طردت من المقبرة نظراً لعدم حصولها على إذن الدفن.

وكان مفتش البلدية قد وجدها ملقاة في حفرة جانبية عند السور واضطر لطردها بمجرد أن تبين له أنها لا تحمل أية أوراق، ولكنه بالطبع نسي أن ينزع من يدها عصا المعصدة. وقد تركها تعود إلى زقاقنا حاملة ذلك السلاح الفظيع إلى جانب كل الأفكار المثيرة والطائشة التي تعلمتها من الموت. وعندما تجمع حولها سكان الزقاق وطفقوا يسألونها عما حدث بالضبط، ظلت تحدق في

وجوههم بازدراء ثم أدارت لهم ظهرها دون أن تقول شيئاً وطفقت تربت على عصا المعصدة.

كانت السيدة «ف.م.» قد تغيرت بعض الشيء.

وكان ذلك قد حدث بالتأكيد خلال الليلة التي قضتها في المقبرة. فقد بدت بعد عودتها من تلك الرحلة الغامضة قليلة الكلام إلى حد يدعو إلى الحيرة.. وأخذت تظهر مشاعر عدائية تجاه سكان الزقاق من الرجال وتراقبهم في ضيق مبدية جرأة غير محدودة في البحث عن المتاعب معهم على عكس العادة المتبعة بين بقية العجائز في زقاقنا، كأن أحداً ما في المقبرة قد أخبر السيدة «ف.م.» بأن كل الرجال الذين يعيشون في العالم مجرد نمور من الورق، وأنها تستطيع أن تفعل بهم ما تشاء إذا تعلمت كيف تستغل عصا المعصدة الملتصقة بيدها.

وقد تعلمت السيدة «ف.م.» ذلك خلال أسبوع واحد بالضبط.

ثم طفقت تذرع الزقاق طوال النهار وتصفر بنزق وتلوي عصاها في يدها على عادة الشرطة منتظرة عودة زوجها من المقهى. وكان زوج السيدة «ف.م.» يلعب الورق كل يوم في مقهى الحي المجاور ويعود إلى بيته عند المغرب. وكان يبدو أنه تخلى عن عادته القديمة في التسكع بين الأعراس بحثاً عن سكرة بالمجان، ولكنه عاد ذات ليلة متأخراً ورآه أحد سكان الزقاق يترنح عند المنعطف ثم سمعه يصرخ بملء رئتيه تحت وطأة عصا المعصدة.

كانت السيدة «ف.م.» تضرب زوجها لأول مرة في تاريخ زقاقنا.

وكانت تستعمل عصاها الغامضة بمهارة لا تبارى.. وقد طرحته

على الأرض مرتين وشجّت حاجبه الأيسر ورفسته أيضاً فوق أنفه، وعندما حاول سكان الزقاق من الرجال أن يتدخلوا لإنقاذه قالت لهم السيدة «ف.م.»:

ـ امشوا يا معشر الخنازير .. هذا ليس من شأنكم. إنني أستطيع أن أحلّ مشاكلي مع زوجي دون تدخل من جانبكم.. امشوا.. إن المرء لم يخلقه الله لكي يجلس في انتظاركم ريثما تنهوا جولاتكم القذرة بين الحانات. امشوا.. أنتم لا بد أن تتعلموا معاملة خلق الله عن طريق عصا المعصدة.

ومشى الرجال في زقاقنا مطرقي الرؤوس.

وتجمعوا عند الناصية وطفقوا يتشاورون في أمر السيدة «ف.م.» وقد قرروا أول الأمر أن يدعوا لها أحد الفقهاء المعروفين في طرابلس، ثم لفت الحلاق نظرهم إلى أن عصا المعصدة سقطت مرة من يد السيدة «ف.م» وأن ذلك لا بد أن يعني على وجه الضبط أن العجوز الفظيعة تحمل تلك العصا لأغراض خاصة وليست ملصقة بيدها بأي حال، ثم تشاور الرجال حتى مطلع الفجر.. واكتشفوا بوضوح أن السيدة «ف.م.» قد تغيرت كثيراً منذ وصولها من المقبرة، وأنها لم تعد تشبه أية عجوز في الزقاق، وأنها ـ بطريقة لا تقبل الشك ـ تحمل لهم بالذات مشاعر عدائية عميقة الغور.

وقد هزّ هذا الاكتشاف معظم الرجال في زقاقنا وهزَّ أيضاً شيخ المحلة الذي اعتراه الغضب على الفور وقرر أن يذهب لتصفية الحساب مع العجوز المتمردة، ثم تورط في معركة مخجلة معها واضطر إلى أن يعلن لها أنها امرأة مخبولة فاسقة لعب الشيطان بعقلها ليلة كاملة في قبر مهجور.. وقد بصقت السيدة «ف.م.» على وجهه مرتين ووضعت أحد أصابعها في عينه وقالت بازدراء:

ـ امشِ.. استدر من هنا ودعني أرى كتفيك القبيحين، امشِ.. أنا أقول لك. إن الله نفسه سوف يقف إلى جانبي لكي أحطم رؤوسكم جميعاً.. فأنا أعرف الآن كيف أفعل ذلك، وأعرف أنني لا بد أن أدفع لكل خنزير منكم نصيبه بالضبط من عصا المعصدة.. أنا لم أمت عبثاً.. لقد فعل الله ذلك لكي يجعلني أرى حقيقة الحياة. بينكم.. يا إلهي.. أنا عشت في زقاقكم مثل خنزيرة عمياء.. واحتملت كل ما أصابني من سوء عشرتكم.. كنت أعتقد أن ذلك ما يريده الله مني ولكنني تعلمت الآن سر الخدعة المزرية. إن الله لا يريدني أن أفعل شيئاً في العالم سوى أن أمرح في هذا الزقاق وأكسر رؤوسكم مقابل كل حماقة ترتكبونها معي أو مع أية امرأة هنا.. ذلك بالضبط ما يريده الله مني.. امشِ.. لا تدعني أفقد السيطرة على غضبي.. إنني أستطيع أن أكسر ضلوعك في الحال.

وقد سقط شيخ المحلة فريسة الغضب والدهشة معاً، ودفعه عناده المتأصل إلى إظهار الاستخفاف بأقوال السيدة «ف.م.» ثم دفعه أيضاً ـ في إحدى لحظات الطيش ـ إلى أن يرفع يده ويلطم العجوز الغاضبة فوق رأسها معلناً لها بازدراء أنها أصبحت قليلة الحياء إلى حد لا يطاق، وانها تحتاج إلى أن تموت ألف مرة قبل أن تجرؤ على مخاطبة رجل من زقاقنا بهذه اللهجة،ثم استدار شيخ المحلة في كبرياء مزمعاً أن ينطلق عائداً إلى حلقة الرجال عند ناصية الزقاق، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أنه في الواقع قد ارتكب خطأً مميتاً، وأن السيدة «ف.م» لا تزمع أن تتركه يعود حياً.. وقد انهالت فوق رأسه بعصا المعصدة وطفقت تدق ضلوعه بلا رحمة حتى فقد شيخ المحلة وقاره وقرر أن يطلق ساقيه للريح غاضاً النظر عن أثر تلك الفضيحة أمام سكان الزقاق.

ولكن الجري أيضاً لم ينقذه من عصا المعصدة..

فقد تبين على الفور أن الشيء الغامض الذي حدث للسيدة «ف.م» لم يتركها تعود إلى زقاقنا بأفكار مخبولة فحسب بل أعطاها أيضاً قدرة خارقة على الجري حتى إن المرء ليشك حقاً في ما إذا كان بوسع أحد في المنطقة بأسرها أن يعتمد على ساقيه في النجاة من عصاها الفظيعة.

وقد نال شيخ المحلة في ذلك اليوم عقاباً مروعاً..

ثم جاء دور الحلاق السمين الذي تزوج بأربع نساء في نهاية الزقاق، وأجبرته السيدة «ف.م.» على الدخول معها في معركة مفاجئة خسر خلالها سمعته المدوية في إحراز النصر على خصومه في كل معاركه السابقة. وقد اضطر في نهاية المطاف إلى أن يطلق ساقيه للريح أمام زوجاته الأربع اللائي هللن لفوز السيدة «ف.م.» وأصررن على دعوتها لشرب الشاي معلنات بابتهاج أن الأمر بات واضحاً الآن، وأن الحلاق المخادع سوف يبدأ في دفع ثمن كل أخطائه السابقة.

ثم جاء دور جارنا الجزار.

وفاجأته السيدة «ف.م.» ذات يوم فيما كان يضرب زوجته بالمكنسة وشجت رأسه من الخلف، ثم كسرت أحد ضلوعه وتركته ملقى على الأرض. وقد وقفت السيدة «ف.م.» بعد ذلك فوق جثة جارنا الجزار وأعلنت لجميع سكان الزقاق بأن ذلك بالضبط هو عقاب كل خنزير منهم يجرؤ على ضرب امرأته أو تعذيبها أو رفسها في ظهرها، أو يجرؤ على المجيء متأخراً بعد منتصف الليل ويطلب منها أن تسخن له عشاءه أو يحبسها في البيت طوال العام ويذهب للتسكع في الإسكندرية أو يرتكب

حماقة أخرى من شأنها أن تجعل تلك السيدة تحس كأنها مجرد خادمة في بيت الباشا.

وقد تجمع الرجال عند ناصية الزقاق على الفور، وتشاوروا ملياً في الأمر كله، وتبادلوا النصائح المثيرة ولكن أحداً منهم لم يجد ثمة ما يستطيع أن يفعله تجاه السيدة «ف.م.».

فقد كانت قادرة على العدو أسرع من أي رجل في العالم.

وكانت تحمل عصا المعصدة على الدوام وتحملها معها إلى سريرها وتستيقظ بها كل صباح لكي تبدأ على الفور جولتها الاستطلاعية في كل بيت داخل الزقاق. وكانت تنتظر الرجال الذين تصل عنهم بعض الشكاوى وتدق ضلوعهم على مرأى من بقية السكان وتطرحهم على الأرض وتقف فوق جثثهم لكي تعلن بصوت واضح أن ذلك بالضبط هو عقاب كل خنزير منهم يجرؤ على ضرب امرأته أو تعذيبها أو رفسها في ظهرها أو يجرؤ على المجيء متأخراً بعد منتصف الليل ويطلب منها أن تسخن له عشاءه أو يحبسها في البيت طوال العام ويذهب للتسكع في الإسكندرية أو يرتكب حماقة من شأنها أن تجعل تلك السيدة تحس كأنها مجرد خادمة في بيت الباشا.

وكان الرجال في زقاقنا يهزون رؤوسهم.

وكانوا يجتمعون كل ليلة ويتبادلون النصائح ويهزون رؤوسهم. وكانوا يعودون إلى بيوتهم مبكراً ويهزون رؤوسهم.. وكانوا يفعلون كل شيء طبقاً لرغبة السيدة «ف.م.» ويهزون رؤوسهم.

وكانوا حقاً مجرد نمور من الورق.

26 أغسطس 1969

حادثة في المدينة القديمة

أنا اسمي «زين العابدين» ولدي شهادة رسمية بذلك.

وأنا أصلي الخمسة أوقات، وأعمل حمالاً في مرفأ طرابلس معظم أيام الأسبوع. وقد وقعت في البداية فريسة الوحدة والعادة السرية نظراً لظروف الحب في منطقتنا، ثم قررت أن أتزوج ووفرت ثمن امرأة متوسطة الحال من النوع العادي وبدأت أبحث عنها في أزقة المدينة القديمة.

كنت أبحث عن إبرة في مخزن التبن. وكانت النساء قد انقرضن من العالم ولم يعد ثمة ما يستطيع المرء أن يصادفه في الأزقة سوى الرجال وعلب القمامة وزجاجات النبيذ الفارغة وباعة الفجل والكلاب البلهاء التي تسارع إلى الجري في أعقابك بمجرد أن تكتشف أنك لست من سكان الزقاق.. أما النساء فقد انقرضن من العالم، أعني هكذا خطر ببالي، حتى ألقتني الصدفة ذات يوم داخل زقاق مسدود في المدينة القديمة واكتشفت أن الفراشية التي قفزت أمامي ثم غابت في أحد البيوت كانت تضم رجلاً بدون لحية.

أعني هكذا خطر ببالي، فالواقع أنني رأيت كثيراً من الفراشيات البيضاء في المدينة القديمة، ولكني لم أر فراشية واحدة نصف مفتوحة لا تضم رجلاً بلحية. وقد استرعى ذلك نظري على الفور وبدأت أتساءل عما إذا كان ذلك الرجل قد تورط في حلق شعر ذقنه ولم يعد بوسعه أن يبارح الزقاق المسدود. وفي اللحظة التالية سمعت صوتاً من وراء الباب يقول لي باللهجة المحلية: ماذا تفعل هنا في شارعنا؟ امش يا ابن الكلب.. ابحث عن خنزيرة مثلك.

كان صوتاً واضح النبرات ولكنه لم يكن يشبه أصوات الرجال الملتحين الذين تعودوا على مطاردتي بالشتائم كلما تورطت صدفة في أحد الأزقة المسدودة.

وقلت للباب:

أنا غريب عن المنطقة. إنني لم أدخل شارعكم متعمداً.

وفي حذر مطلق تسلل الباب إلى الوراء ورأيت في وسط الفرجة بالضبط وجه امرأة. كانت بشرتها أكثر بياضاً من الرجل العادي، وكانت عيناها مليئتين بالغضب، ولكن نقطة الوشم فوق أنفها جعلتني أغرق في الضحك.

ـ امش يا ابن الكلب.

ـ حاضر يا سيدتي. أنا ماش، إنني في الواقع لا أفعل شيئاً غير ذلك، ولكن دعيني أتحدث معك، هل تعرفين امرأة للبيع في هذا الشارع؟..

ـ امش يا ابن الكلب.

ـ هل تعرفين امرأة للبيع في الشارع الخلفي؟

وقالت السيدة في هدوء:

ـ أجل في الشارع الخلفي ثمة امرأة معروضة للزواج ولكني لا أستطيع أن أبوح لك باسمها علناً.

ودخلت إلى البيت بالطبع لكي أعرف اسم زوجتي واكتشفت في الداخل أن السيدة متزوجة بدورها منذ بضع سنوات وأنها تملك ثمة ما تقوله لي بخصوص ا لحصول على زوجة ليبية معتدلة السعر تقطن في الشارع الخلفي. ولكننا لم نتفق بشأن التفاصيل فقد علمت منها أنه لن يكون بوسعي أن أرى وجه زوجتي قبل أن أدفع الثمن مقدماً وأحملها إلى بيتي، وكان ذلك بالنسبة لي شرطاً لا يمكن قبوله، فأنا لا أستطيع أن أشتري الحوت في البحر ثم إن المرء لا يحمل شيئاً إلى بيته دون أن يعرف اسمه على الأقل.

وقالت السيدة:

ـ اسم زوجتك «فطومة»، هل يكفيك هذا؟

ـ لا .. إنه لا يكفي.

ـ ماذا تريد إذن؟ ..

وقلت لها أريد أن أرى وجه زوجتي. أنا أعرف أن ذلك عار لا يمكن نسيانه، ولكني لا بد أن أرى وجهها على الأقل. ألا تستطيعين إقناعها بأن تتركني أرى وجهها؟

وقالت السيدة بحدة:

ـ كل شيء إلاّ الوجه. أنا أقسم لك أن فطومة أجمل بنت في طرابلس..

ووضعنا الموضوع جانباً، وبدأنا نتحدث عن أنفسنا، وقد دعتني السيدة إلى شرب الشاي معها ثم تركتني أجرها من يدها إلى الغرفة المعتمة. وعندما بلغ الحب بيننا أوجه خبطتني على رأسى وأخبرتني

أنني ابن كلب لطيف المعشر.

ولفت نظرها إلى أن الخبط على الرأس لا يدخل في ممارسة الحب، فقرصتني في عنقي وطفقت تضحك معلنة للجيران أنني أطرف خنزير في العالم.

وكان ذلك في الواقع أمراً لا يشجع على الحب، ولكني اضطررت إلى اختيار سبيل المجاملة نظراً لسوء تجربتي مع العادة السرية، وقررت أن أحتمل تلك السيدة إلى نهاية الخط. وقد عادت فكدمت رأسي بالدملج ثم روت لي ما حدث في عرس جارهم الخراز.

ـ دعيه يذهب إلى الجحيم.

ـ من؟

ـ جاركم الخراز، دعيه يذهب إلى الجحيم. إنني لا أريد أن أسمع شيئاً عنه.

ـ علاش؟ ..

ـ لا يهم أن تعرفي. دعيه يذهب إلى الجحيم فقط.

وقالت السيدة:

ـ ولكنك لا تعرف قصة زواجه. إنها أطرف ما حدث في طرابلس.

ـ إنها قصة سخيفة للغاية، والخراز أسخف إنسان في طرابلس؟

ـ علاش؟ ..

ـ لا أدري. أعني لأنه يقحم سيرته بيننا هنا.

ـ إنه جارنا.

ـ أجل أعرف أنه جاركم، ولكن الحديث عنه في هذه اللحظة

بالذات أمر لا يخصنا إنه يجعل غرفتك تفوح برائحة الجلد المدبوغ.

ونهضت السيدة بهدوء وذهبت إلى وسط الغرفة معلنة أنها لم تعد ترغب في ممارسة الحب معي لأنني ألحقت الإهانة بجارها الخراز.

ـ حسناً .. عودي إلى هنا وهاتي الخراز معك.. هاتي كل الخرازين في العالم.. أنا لا أرغب في أن ألحق الإهانة بأي منهم.. كل ما في الأمر أنني أردت أن أقضي معك بعض الوقت متفرغاً للحب.

وضحكت السيدة حتى استلقت على قفاها، ثم لفتت نظري إلى أن الحمير وحدهم يمارسون الحب بدون كلام، أما الناس الليبيون الذين خلق لهم الله ألسنة فإنهم في العادة يتحدثون عن جيرانهم.. ثم جلست على حافة السرير وروت لي قصة الخراز كاملة. وكانت قصة سخيفة للغاية، وكانت السيدة تضحك طوال الوقت بدون سبب واضح، وقد جعلتني أمتلىء سأماً إلى أذني ولكني كنت مضطراً إلى اختيار سبيل المجاملة نظراً لسوء تجربتي مع العادة السرية. وعندما انتهت قصة الخراز بدأت السيدة تمهد الطريق أمام قصة أخرى.

ـ هذا يكفي..

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنني أريد أن أخرج من هنا. لقد نلت حاجتي من الحب والخرازين ثم إنني في الواقع لا بد أن أواصل البحث عن زوجتي، فقد ثبت لي أن المرء لا يستطيع أن يعتمد على الصدف السعيدة وحدها في حلّ مشاكله الجنسية. إنني أتعس إنسان في العالم.

ـ علاش؟ ..

- ليس ثمة سبب واضح يا سيدتي.. إن المرء يشعر بالتعاسة دون مبرر في أغلب الأحيان، ثم إن التسكع في أزقة المدينة بحثاً عن قصة أحد الخرازين البلهاء لم يعد يشعرني بالإثارة.

وخبطتني السيدة فوق رأسي وأعلنت ضاحكة أن «فطومة» تستطيع أن تحل كل مشاكلي.

- جارتنا في الشارع الخلفي.. إنها أجمل بنت في طرابلس ولكنك لا يجوز أن تصر على رؤية وجهها.

- لقد قلت لك إنني لا بد أن أرى وجه زوجتي على الأقل.

وحكت السيدة كتفها ثم قالت بعد برهة:

- أنا أريد أن أساعدك .. إنك في الواقع أخي.. أعني نحن لم نرتكب خطيئة حقيقية وما زلنا أخوين. أليس كذلك؟

- أجل.. لقد تكفل الخراز بإقامة روابط الأخوة بيننا. اسمعي.. نحن ما زلنا أخوين والخراز والدنا..

وقالت السيدة بهدوء:

- وأنا أريد أن أساعدك.. إنني في الواقع أستطيع أن أجعلك ترى وجه فطومة لبرهة من الوقت.. الأمر ليس مستحيلاً حقاً، ولكني لا بد أن أتأكد من حسن نواياك..

- ماذا يعني ذلك؟ ..

- يعني أنني لا بد أن أعرف أنك تبحث عن امرأة للبيع وليس لمجرد الإيجار.

وقلت لها إن نيتي حسنة إلى هذا الحد، ولكني لا بد أن أعرف بدوري نوع الخطة التي تعدينها، فليس من المتوقع أن أوافق على الدخول في مغامرة طائشة وراء أزقة المدينة القديمة من أجل وجه امرأة.. إن البضاعة لا بد أن تعرض للبيع في مكان آمن.

وابتسمت السيدة مبدية حكمة مفاجئة ثم قالت بصوت خافت:

ـ نحن هنا، أعني نساء المدينة القديمة نملك حيلة متواضعة لعرض بعض عرائسنا على الرجال الذين يرغبون في الزواج.. اسمع إن الأمر غاية في اليسر.

ونظرت إليها.. كانت تبتسم بدون سبب واضح، وكانت النقطة الخضراء فوق أنفها قد أثبتت جناحين فجأة وبدأت تصعد إلى أعلى.

وقالت لي السيدة:

ـ هل تعرف شارع البحر؟ إنه أهم جزء في خطتنا، اسمع، إنك لا تستطيع أن ترى وجه زوجتك إذا كنت لا تعرف شارع البحر.

ووضعت يدي على كتفها وأعلنت لها أنني أعمل في ميناء طرابلس، وأن المرء عندما يعمل في ذلك الميناء لا بد أن يعرف شارع البحر باعتباره أفضل منفذ للصناديق المسروقة.

وسألتني السيدة بعينيها البسيطتين:

ـ هل تسرقون كثيراً من الميناء؟

أجل، أعني هذا ليس من شأنك ثم إنه أيضاً لا يخص خطتنا بشأن وجه زوجتي، إن ميناء طرابلس الفظيع يضم كل شيء في العالم والمرء عندما يكون مجرد حمّال يرى ذلك بعينيه ويديه معاً.

وقالت السيدة بأناة:

ـ هذا يعني أنك تسرق من الميناء؟

ـ هذا ليس من شأنك، دعينا نتحدث عن وجه زوجتي أعني عن شارع البحر.. لماذا ذكرت ذلك الشارع؟

ـ لأنه يضم رجلاً ميتاً ملقى على قارعة الطريق.

ـ ماذا؟

ـ قلت لك لأنه يضم قبر رجل ميت، أعني أن أحداً ما دفن والده في وسطه.

ووضعت يدي على قلبي فقد كان من الواضح أن تلك السيدة البلهاء كانت تتحدث عن قبر المرابط الذي يقع في منتصف الطريق، والمرء لا يستطيع أن يدعو أحد الأولياء مجرد رجل، إن ذلك ـ في الواقع ـ سلوك رديء من امرأة رديئة.

وقلت لها:

ـ أنت امرأة لا تطاق.

ـ لماذا؟

ـ لأن لغتك سوقية، إن المرء لا يدعو أحد الأولياء مجرد رجل ميت ملقى على قارعة الطريق، إنه ولي ملقى على قارعة الطريق، أعني ولي في متناول اليد.

وقالت السيدة:

ـ هذا ما أقصده بالضبط. اسمع.. لماذا ترفع صوتك هكذا؟

ـ لأنني أكره وقاحتك، إن خطتنا بشأن زوجتي لا علاقة لها بالميتين، ثم إنني لا أريد أن أصل إلى هدفي على جثة رجل ميت.

وضحكت السيدة حتى تجعد وجهها مثل زبيبة مثقوبة، ثم خبطت كفاً بكف وأعلنت بأناة:

ـ إن خطتنا في الواقع لا يمكن تنفيذها بدون جثة الرجل الميت.

ـ لماذا؟

ـ لأن السيدة زوجتك القادمة تستطيع أن تتركك ترى وجهها

إذا جاءت لزيارة القبر، فيما تمر أنت صدفة بعربتك الفولكس فاغن وتنظر بجانب عينك.

ـ لماذا بجانب عيني فقط؟

ـ لأن ذلك يكفي .. إن المرء يرى أكثر من نصف الوجه في نظرة واحدة. ثم إننا لا نملك سوى ميت واحد في شارع البحر، والنظر ملياً إلى وجه امرأة ليبية يحتاج إلى مقبرة كاملة.

ـ يا إلهي! ..

وقالت السيدة: دعنا من الصراخ.. إنك تجعلني أحس كأنني اقترفت ذنباً.. اسمع.. كل ما في الأمر أننا هنا في المدينة القديمة نذهب لزيارة الولي لكي يقف إلى جانبنا في أوقات الحاجة.. فهل تريد أن تشتري فطومة؟

ـ لا ..

ـ علاش؟

قلت لك إن نظرة واحدة بجانب العين لا تكفي.. أنا لا بد أن أراها بقلبي، أعني من الداخل. وأرى أنها تليق بأطفالي وأنها لا تحمل نقطة خضراء فوق أنفها.

وضحكت السيدة وقالت بعناد:

ـ هذا مستحيل.. إن فطومة معروضة للزواج وليس للتنقيب.. ثم إننا هنا في المدينة القديمة نعتبر المرأة مثل البحر لا تستطيع أن ترى قاعه إلاّ إذا خلعت ملابسك.. أعني إلاّ إذا غصت بداخله.

ـ أتفو..

ـ علاش؟

ـ لا أدري.. أعني لأن فطومة ليست بحراً، أعني لأن المرء أيضاً

لا يستطيع أن يتزوج الحوت في البحر.

ووضعت السيدة يدها فوق رأسي وطفقت تواسيني بود مفاجىء.. وكانت قد أحست بحيرتي تجاه الخطة بأكملها، وكانت تبذل جهداً خارقاً لكي تجعلني أحس بأنها تقف إلى جانبي وفي إحدى اللحظات خيّل لي أنها تريد أن تنقذني من وحدتي.

ـ أجل.. أنا وحيد يا سيدتي.. إنه ليس ثمة إنسان في العالم أكثر مني وحدة وأنا عندما أعود إلى بيتي في المساء أتمنى أحياناً لو أنني أجد فيه شبحاً أو لصاً أو امرأة ميتة بدل وحدتي الفظيعة. فليس ثمة شيء يا سيدتي يستطيع أن يجعل المرء يحس كأنه مجرد كرسي من الخشب سوى جلوسه وحيداً في شقته المفروشة. ثم إن المرء تجرفه أفكاره المجنونة، ويشرع في حساب السنين وفي الحلم بالأطفال ووجبة العشاء الساخنة والخروج للنزهة في الشارع الرئيسي حاملاً طفله فوق كتفه.. إن الوحدة ـ يا سيدتي ـ هي في الواقع ما يدفعني للجري وراء فطومة.

ـ فطومة أفضل كثيراً.

أجل.. إن أية امرأة أفضل من الوحدة.

ـ فطومة أفضل من الوحدة مرتين.. إنها بنت طيبة هادئة المعشر لا تقلقك بكلمة حتى إذا بقيت بجانبها مائة عام.. ثم إنها مطيعة وإذا طلبت منها أن تقف في الركن على رأسها فإنها ستفعل ذلك حتى تكسر عنقها..

ـ ولماذا أطلب منها أن تقف في الركن على رأسها؟

ـ أعني إذا خطر لك أن تجعل امرأتك تقف في الركن.. هذا كل ما في الأمر.. إن المرء قد يخطر له أن يفعل بامرأته أي شيء.

ونظرت إليها، كانت تبتسم بدون سبب واضح، وكانت النقطة

الخضراء فوق أنفها قد أنبتت جناحين فجأة وبدأت تصعد إلى أعلى..

وفي يوم الجمعة التقينا عند مدخل شارع البحر.. كانت السيدة قد لبست حذاءها الفضي ووضعت عقداً من الفيروز حول عنقها، وكانت تمضغ اللبان وتنظر إلى المواطنين بعين واحدة.. وقد اتجهت إلى قبر المرابط على الفور ودارت حوله مرتين ثم طفقت تمسح الراية الخضراء بيدها وتقبلها.. وكان ثمة مواطن زنجي يقف عند انحناءة الطريق المقابلة للقبر ويداري وجهه في الجدار.

ـ ماذا تفعل هنا يا سيدي؟

ـ لا شيء..

أنا أيضاً مثلك.

ورمقني الزنجي بجانب عينه ثم قال بثبات:

ـ أنت لست مثلي. أنت ليبي أبيض ولديك فرصة أفضل في العثور على امرأة. إنني مضطر للتعامل مع السوق السوداء.

ـ أنا أيضاً مثلك.

وقال الزنجي بثبات:

ـ أنت ستتزوج فطومة.. اسمع لقد جئت لكي أخطبها من والدها في العام الماضي فطردني من بيته ودعاني عبد.

ـ إنه سيجد لي لقباً آخر بدوري عندما أتقدم لخطبتها.. أنا أيضاً مثلك.

ووضع الزنجي يده على كتفي ومشينا معاً عبر شارع البحر. وكانت السيدة قد بدأت المزاد بامرأة قصيرة القامة من منطقة بن غشير وطفقت تسحب فراشيتها إلى أسفل في محاولة يائسة للفت

انتباه أحد المواطنين الذين أقعوا في عربات الفولكس فاغن على طول الانحناءة، ولكن البضاعة كانت رديئة للغاية، وكان المواطنون مشغولين بمتابعة أنباء المباراة.. وقد ظلت السوق غير نشطة حتى عرضت السيدة فجأة فراشية ناصعة البياض إلى حد يؤذي العين اسمها فطومة.

ـ هذه زوجتي.

ـ هذه امرأة للبيع.

ـ أجل.. أعني هذه زوجتي المعروضة للبيع.

وضحك الزنجي وقال بثبات:

ـ أنا أحسدك. إنك ليبي أبيض وتستطيع أن تتزوج فطومة، يا إلهي، كم بودي أن أحصل على امرأة مثلها باللون الأسود.

وقلت له:

ـ دعنا نؤجر فطومة لمدة ساعتين. إننا نستطيع معاً أن نقضي وقتاً طيباً ثم إننا سنتقاسم النفقات.

ـ ذلك مستحيل.

ـ لماذا.. أنا أعرف أن فطومة معروضة للبيع فقط، ولكننا بالطبع نستطيع أن نشتريها معاً لمدة ساعتين.

ووضع الزنجي يده فوق كتفي وقال بثبات:

ـ أنا لست في عجلة من أمري، إنني أستطيع أن أنتظر النسخة السوداء فاذهب أنت واحجز فطومة قبل أن تختفي من السوق.

وعدت مسرعاً عبر شارع البحر حيث بدت فطومة مثل القمر بجانب القبر المحاط بالسياج.. وكانت السيدة ما تزال تقبل يدها وتمسح الراية الخضراء. والشارع مليء بالمواطنين.

ـ هل أتزوج فطومة يا أيها المواطنون..؟ هل أقفز إليها من فوق رؤوسكم وأتزوجها؟

هل ثمة فرجة صغيرة في الصف أنظر منها إلى زوجتي..؟

وقال لي أحدهم:

ـ انتظر .. لا تخرج من دورك.. نحن كلنا قدامك.

19 أبريل 1969

قطع الغيار

عندما يرتفع صوت ما في بلدنا ـ أو في أي بلد متخلف آخر ـ مطالباً «بشن حملة شعواء ضد الأمية» فإنه عادة يصدر دون دراية أو معرفة. هذه معادلة تبدو مريبة من الخارج، ولكن متابعتها عن كثب تثبت فوراً أنها صحيحة إلى حد كاف. فالافتراض السائد بأن الأمية هي «عدم المعرفة نتيجة العجز عن القراءة» افتراض لا يتورط في قبوله سوى رجل شبه أمي. أو على الأقل شبه أمي دون أن يدري. لأن «عدم المعرفة» من جهة كلمة أسطورية لا تعني شيئاً على الإطلاق، ولأن «القراءة» من جهة أخرى لا علاقة لها بالمعرفة.

وأنت عندما تقول إن جارك مواطن «أمي» لا تعني في الواقع أن دماغه لا يختزن أية معارف من أي نوع وأن سلوكه الخاص يصدر من لا مكان، بل تعني بالتأكيد أن معارفه قديمة وغير صحيحة ومضحكة أيضاً بالنسبة لمعارف العصر لأنه استقاها بالسماع وأنت تعتقد أن ذلك يضعه تحت خانة «الأميين» ولكنك تنسى أن جارك لم يكن في وسعه أن «يسمع» معارفه المضحكة لولا أن أحداً ما قد قرأها أمامه وأن ذلك «القارىء» أيضاً يختزن المعرفة نفسها.

فالمشكلة لا تخص «القدرة على القراءة أو عدم القدرة»، بل تخص «نوع المعرفة المطلوبة» ونحن نرتكب خطأ لا يمكن غفرانه عندما نفرق بين الأمية وبين القدرة على القراءة باعتبار الشكل الخارجي وحده. فالواقع أن الفرق طفيف للغاية داخل ذلك النطاق، والمرء لا يستطيع أن ينفذ من فخ الأمية بمجرد أن يمتلك وسيلة المعرفة التي تدعى عندنا بالقراءة. إنه يصبح فقط «أمياً مقنعاً». وإذ ذاك يصير مريضاً اجتماعياً أشد خطورة من سواه، لأن إلمامه بالقراءة يجعله يتصور أنه خرج من منطقة الخطر ودخل في عداد العارفين ثم يجعله يتصور أنه بات يملك الحق في «النقاش وإيجاد الحلول» أيضاً.. وعندما يبدأ في ارتكاب هذا الخطأ يضع نفسه ومجتمعه وجميع أجياله القادمة تحت رحمة الجهل المقنع والمقام على قاعدة النرجسية وحدها، ويصير اسم المشكلة «الأمية العلمية» بدل الأمية فقط.

وأنا أقول هنا إن ذلك بالضبط هو مرض مجتمعنا في ليبيا.

فمشكلتنا في الواقع لا تخص عدد العاجزين عن القراءة والكتابة بقدر ما تخص «نوع» المعارف التي نتناقلها سواء بالقراءة أو بالسماع عبر جميع مصادرنا الفكرية في بلدنا الصغير. تلك الحزمة القديمة من الأخطاء والثقافات القديمة المفجعة القبح والأوهام الموروثة من أكثر عصور العالم إيغالاً في الموت التي تنشب أصابعها في أعناقنا بشراسة تدعو إلى الدهشة.

ويكفي أن أقول لكم هنا إن «العلماء الليبيين» ـ وهم بالطبع أكبر مصادر المعرفة عندنا ـ ما يزالون حتى الآن يعتنقون فكرة القرون الوسطى عن الإنسان الذي خلقه الله بمثابة دمية طينية ثم نفخ فيه الروح وأنزله من السماء مقابل تفاحة، لكي تتضح معالم

الكارثة الفكرية التي يعيشها المواطن الليبي عبر «معارفه» سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

«فالأمية العلمية» التي تأخذ بخناق مجتمعنا في ليبيا ليست ذات علاقة حقيقية بنسبة «العاجزين عن القراءة» ولكنها ذات علاقة مباشرة ـ ووطيدة للغاية ـ بنسبة «العلم المغلوط» في معارفنا الكلية.

وإذا كان ثمة من يعتقد أن نشر التعليم يستطيع أن يحل هذه المشكلة المعقدة ـ بغض النظر عن نوع الفكر ـ فإنها بكلمة واحدة مغالطة علمية.

إن المشكلة لا يمكن حلها إلاّ من الداخل.

وذلك يبدأ بأن نرفض أولاً البديهية المضحكة القائلة بأن «الأمية هي العجز عن القراءة» لأن ذلك يفتح الباب أمام قطيع غير محدود من «الأميين القارئين» لكي ينصبوا أنفسهم قادة مجانين لمسيرتنا الفكرية، ولأنه أيضاً تشخيص خاطىء للمرض الذي نعاني منه في بلدنا بالذات، وفي جميع البلدان المتخلفة بوجه عام.

إن العجز عن القراءة نوع واحد من أنواع الأمية فقط.

وهو أيضاً الشكل الخارجي لها الذي يستطيع المرء أن يلمسه بأصابعه، ولكن ذلك لا يعني بأي حال أن «الأمية» تبدو دائماً في هذا الشكل الواضح بالذات. إنها تصبح أكثر وضوحاً وأكثر خطورة ومدعاة للخسارة عندما تختفي وراء قناع القدرة على القراءة، ويصير بوسع «الأمي» أن يقرأ لك أفكاره المشوهة من فوق منصة الخطابة، ويخدعك عن سمها القاتل بالبديهيات التي تبدو من الخارج منطقية ومغرية.

الأمية هي العجز الفكري عن إيجاد الحق بالنسبة لمركز الإنسان في الكون.

هذا هو التعريف الوحيد الذي يستطيع المرء أن يتقبله بالنسبة لتفسير الظاهرة بأسرها. وإذا قرأ لي أحد ما في كتابه أن الرب خلق آدم مثل دمية طينية وأطلقه لكي يركض فوق الأرض تحت حراسة شبه دائمة من مخلوق ناري اسمه الشيطان، فأنا أدعوه بكلمة واحدة «رجل أمي»، لأن الحق ـ أو العلم الحقيقي ـ يستطيع أن يثبت بوضوح غير قابل للشك أن خلق الإنسان لم يتم على هذا النحو، ولأن صناعة الدمى الطينية ليس في الواقع الصورة الحقيقية التي تليق بفكرة الإنسان عن قدرات خالقه. فإذا قرر ذلك «الأمي القارىء»، أن يفرد فكرته بطريق أو بآخر، فإن وسيلته الوحيدة أن يلبس ثوب «العالم» ويقطع لساني بتهمة «الجهل» دون ثمة دليل من أي نوع سوى أن يفهم ويفسر ما جاء في كتاب الله.

هذه هي الحلقة المفرغة في مشكلة «الأمية العلمية».

رجل «أمي» يلقب نفسه باسم «العالم» لمجرد أنه تعلم القراءة المتحذلقة، ويستطيع أن يقف وحده ضد جميع العلماء والأدلة العلمية المقاطعة لكي يفرض فكرته دون ثمة دليل من جانبه سوى «أوهامه النرجسية»، وينفي كل شيء آخر في علبة القمامة، ثم يجعلك بعد ذلك تقبل يده أيضاً.

وأنا هنا لا أختار هذا المثال بالذات إلاّ لأنه أكثر وضوحاً من سواه «فالعلم باسم الله» ما يزال في بلدنا أكبر مظاهر الأمية المقنعة على الإطلاق ولكنه بالتأكيد ليس وحده فارس الميدان. «فالعلم باسم مصلحة الشعب»، والعلم باسم «التقاليد الحميدة الأصيلة» يلعبان أيضاً دورهما المثير في أمية الشعب الليبي التي نصرخ منها على كل الجبهات إن مشكلتنا لم تكن قط عدد «القادرين على

القراءة»، ولكنها كانت دائماً نوع الثقافة المقروءة وحدها.

الثقافة الدينية والسياسية والاجتماعية.

الثقافة المثقلة بالمغالطات القديمة وازدراء وسائل العلم الحديث وعدم وضوح الرؤية والتسليم بالبديهيات غير الحقيقية والاعتماد على الإثارة العاطفية الخالية من العمق. ونشر التعليم لا يستطيع أن يغير وجهة هذا الطوفان من الأخطاء، بل إنه في الواقع سوف يزيدها ثباتاً وشمولاً إلاّ إذا بدأ بإيجاد «المنهج» المطلوب لابعاد الفكر نفسه.. أي يبدأ بإيجاد «الحق».

وأنا أستعمل كلمة الحق هنا بالنسبة لاتجاهين مرتبطين معاً..

الاتجاه الأول: علاقة الإنسان بخالقه، تلك العلاقة التي لا يمكن قط أن تقوم على أساس حقيقي من المعرفة الحقيقية ما دامت تبدأ بفكرة غير علمية ـ وغير دينية بالتالي ـ مؤداها أن الإنسان دمية طينية. إن هذه الانطلاقة لا يسندها شيء في الواقع سوى التفسيرات المعوجة للقرآن والإنجيل على حد سواء ولكنها ذات تأثير مفجع في شكل مجتمعنا الإنساني بأسره. وإذا أتيحت لإنساننا المعاصر فكرة أكثر اكتمالاً عن طبيعة القانون العظيم الذي أحضره إلى هذا العالم، فإنه بالتأكيد سوف يكون أكثر قرباً من الله وأكثر إدراكاً للشكل المتناهي الإثارة الكامن وراء دمية الطين. سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

الاتجاه الثاني: علاقة الإنسان بالإنسان. فالطبقية التي نعيشها الآن في تفكيرنا الاجتماعي والسياسي مجرد انعكاس مؤقت لفكرتنا الخاطئة عن العالم نفسه. فالكون ـ بالنسبة لنا ـ مسرح هائل لأسوأ أنواع الطبقية يقف الله فوق قمته وتحته طبقة الملائكة ثم طبقة الأنبياء وتحت طبقة الأنبياء طبقة أخرى إلى آخر القائمة

الرأسية التي يبدو أن أول أخطائها الوثنية أنها تضع «الله في نقطة محددة» وهو خطأ نعتقد جميعاً أننا نتجنبه ـ ببساطة ـ لمجرد أننا نعتنق الإسلام.

من هذين الاتجاهين يبدأ كل شيء في المجتمع الإنساني.

من هذين الاتجاهين تبدأ الأديان والأخلاق والأفكار السياسية أيضاً. وما داما معاً ينطلقان من نقطة خاطئة تحت حراسة مشددة من «الأمية العلمية»، فإننا في الواقع لا نملك فرصة واحدة لإصلاح الاعوجاج الواضح في مسيرتنا الفكرية.. إن ذلك يحتاج إلى عنصر الزمن.

وهذا ما يحتاج المرء إلى أن يعرفه جيداً قبل أن يتورط في الصراخ مطالباً «بمحو الأمية» لأن هذه الصرخة من جهة لا تعني شيئاً في الواقع سوى تعليم الناس القراءة لكي يقرأوا الأخطاء بأنفسهم بدل أن يكتفوا بسماعها، ولأن «الجهل» لا يستطيع المرء أن يمحوه بإيجاد «قرائه».

إننا نفتقر إلى صوت يطالب بتغيير مناهجنا الفكرية.

صوت لا تخدعه «الأمية المقنعة» التي تستطيع أن تنتصب فوق المنصة وتدلق على العالم خطبة فصيحة. وتستطيع أيضاً أن تطبع له جريدة مزينة بالآيات القرآنية والحكم القديمة لكي تقنعه بأنه صنم طيني مصنوع خاصة لكي يأكل تفاح الجنة. إن تعميم القدرة على القراءة عمل حسن ولكنه ليس دائماً عملاً مفيداً. وإذا كان ثمة من يخامره الشك في هذه الحقيقة المفاجئة، فإنه يستطيع أن ينال أكثر من مثال مقنع داخل البلدان التي رفعت نسبة المتعلمين فيها إلى الحد النهائي. إن أكبر المستفيدين من هذه الظاهرة هم باعة المجلات الجنسية.

ولكن المرء لا يجوز أن يفسر هذا القول بأنني أدعو إلى إبقاء الشعب الليبي محروماً من نعمة القراءة. لأن ذلك في الواقع تفسير مقلوب. إن ما أريد أن أقوله هنا بوضوح كافٍ أن تعليم القراءة عمل حسن ولكنه ـ بالتأكيد ـ لا يقود قط إلى محو الأمية إلاّ إذا ظللنا على اعتقادنا الخاطىء بأن الأمية «هي العجز عن القراءة».

أما إذا كنا نملك من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه البديهية غير المعقولة، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أننا لن نحتاج إلى المدارس وحدها لمحو أمية شعبنا، بل إننا أيضاً نحتاج أكثر مرتين إلى مناهج علمية لمحو أميتنا المقنعة قبل أي شيء آخر.

فنشر المعرفة ـ إذا لم تكن معرفة حقيقية ـ مجرد خدمة تؤدى لصالح الجهل وحده.

ونحن في بلدنا الصغير المتواضع الإمكانيات نملك الآن أكثر مما يكفي من الأصوات المتحمسة التي تنسى هذه الحقيقة البسيطة في غمرة حماسها البدائي، وتنسى أيضاً أنها بدورها تحتاج إلى محو أميتها.

إن القراءة مجرد وسيلة لنشر «المعرفة».

وإذا كان من المرغوب فيه أن يمتلك المرء هذه الوسيلة تحت تصرفه، فإنه من المرغوب فيه أكثر ألا يضعه ذلك تحت رحمة «الأمية العلمية» لكي تصب في دماغه جميع معارفها المدهشة. والأصوات التي تطالب بشن حملة شعواء ضد الأمية مطالبة بدورها أن تؤدي نصيبها في الحملة الحقيقية الأخرى ضد «الأمية الدينية والأمية السياسية أيضاً». فالمشكلة ليست مجرد مسرح للصراخ من أجل المدارس وحدها كأن كل شيء آخر معد في بلدنا على ما يرام.

إن الإصلاح الديني في الدرجة الأولى هو المشكلة الفكرية الرئيسية في بلدنا. والمرء لا يستطيع أن يتصور أن الأصوات المتحمسة ـ التي تصرخ فوق جميع صحفنا المحلية مطالبة ببناء المدارس ـ تجهل هذه الحقيقة المسطحة، ولكن المرء أيضاً لا يسمع صوتاً واحداً يشير إلى أن «الحقائق المسطحة» تستحق قليلاً من الحماس.

إن أحداً لا يرفع صوته مطالباً بإصلاح الفكر الديني في الوقت الذي يزعم فيه خطيب الجامع أن الإنسان صنم من الطين. بل إن معظم «الصارخين» في بلدنا مستعدون لقتلك بمخالبهم إذا سمعوا أنك لا تصدق خطيب الجامع. وبعد ذلك ـ أعني أيضاً في الوقت نفسه ـ يطالبون بمزيد من المدارس لنشر «العلم».

هذه خرافة الحماس البلهاء.

خرافة «الأمية العلمية» التي تخنق مسيرتنا في بلدنا بالذات، وفي معظم البلدان المتخلفة مثلنا. قطيع من الذئاب الصارخة التي لا تحسن شيئاً في العالم سوى أن تصرخ من أجل أي كارثة تخطر ببالها. من أجل محو إسرائيل من أجل محو الأمية من أجل الجنة من أجل القرآن من أجل أي شيء مقابل لا شيء، وعندما تتعب من الصراخ تصرخ أيضاً لإبداء التعب.

وفي ذيل القائمة تبقى الحقيقة القبيحة المثيرة للعار والألم. إن صوتاً واحداً يرتفع بشجاعة لفضح مغالطات «الأمية المقنعة» في ميدان السياسة والدين والأخلاق يستطيع أن يخدم بلدنا بصورة أفضل مما تفعل ألف مدرسة يعمرها ألف «أمي قارىء».

ومع ذلك فالصوت الشجاع لا يرتفع قط، بل يظل ينتظرك لكي يأكل جثتك على مأدبة العشاء عندما يذبحك فقي الحارة

العالم باسم الله. ثم يلعق مخالبه ويدخل الجولة التالية في المطالبة بمحو الأمية.

هكذا الحلقة مفرغة في عالم الكتاب الأميين أكلة الحشيش والجثث.

10 فبراير 1971

من مساوئ الخبز

عندما قابلت الحاج حمد قارىء البغدادي في جامعنا لأول مرة، تشاجرت معه بشأن مشكلة لا تخصني. كان يقف إذ ذاك في حلقة من سكان المنطقة ويقرأ لهم بعض قصائده الجديدة، وكنت قد تعلمت لتوي بحور الشعر واكتشفت أن قصائده غير موزونة. نسيت أن أقول لكم إن الحاج حمد يتقاضى عشرة جنيهات ونصفاً لكي يقرأ البغدادي في جامعنا لكن أشعاره كانت بالبلاش.

في ذلك اليوم تشاجرنا بشأن بحر الرجز وأخبرت الحاج حمد بأن قصيدته التي روى فيها مغامراته الليلة الماضية مع امرأة الخفير غير موزونة، وأساء الحاج حمد فهمي معتقداً أنني أشك في حقيقة الحادثة نفسها وأقسم بالطلاق على أن قصيدته واقعية من صميم الحياة، ثم عرف ما أقصده في نهاية المطاف وأدار ابتسامته البريئة على مستمعيه بمثابة رشوة لكي يقفوا بجانبه وسألهم بعد ذلك في لباقة «هذا أيش ايخرف؟».

ضحك المستمعون تحت إغراء الرشوة. أعلن أحدهم أنني ما

زلت صغير السن ولا أعرف كيد امرأة الخفير. اخبرني مستمع آخر أن الحاج حمد قفز حقاً عبر الميزاب وأنه شخصياً فعل ذلك أكثر من مرة. سوء الفهم أمر لا يحتمل.

«اسمعوا» أقول لهم متعمداً إظهار المعرفة بسلوك امرأة الخفير «اسمعوا، أنا لا أشك لحظة واحدة في أن الحاج حمد وصل إليها عن طريق الميزاب، أعني هذا أمر واضح في كل قصص الحب، وسوف يظل كذلك حتى يتم تركيب المجاري. كل ما أردت أن أقوله إن كلمة الميزاب لا تدخل في بحر الرجز. هذا أيضاً أمر واضح».

لكن أحداً لم يفهم شيئاً مما قلته. حتى الحاج حمد الذي قرأ البغدادي على الأقل لم يفهم لماذا لا يدخل الميزاب في بحر الرجز، وقد اكتفى بأن قال إذ ذاك إن الميزاب حقيقة واقعة سواء أراد بحر الرجز أم لم يرد، وإنك لا تستطيع أن تصل إلى امرأة الخفير بدونه.

كان بذلك يعني بلغة النقاد أن الحاج حمد من أنصار الشعر الحديث وأنه يفضل المضمون على الشكل، وأنه أيضاً ـ مثل شعراء المدرسة الواقعية ـ يحب أن يلتزم بالتفاصيل. لكن ذلك بالضبط ما دعاني في اليوم التالي إلى الشجار معه للمرة الثانية.

كنا نجلس إذ ذاك جنباً إلى جنب عند ناصية الزقاق ونتحدث عن المعارك على الجبهة السورية، وكان الحاج حمد يتولى شرح موقع الجبهة لأنه رآها بنفسه عندما ذهب إلى مكة. وكنا دائماً نتحدث في وقت واحد. فجأة صمت الحاج حمد وعلق نظراته في وسط الزقاق، التفت ورائي لكي أرى ما يشغله عن الجبهة السورية. رأيـ ت ولد جارتنا يمتطي عنق والدته كالعادة، ورأيت الجربي ينسرح بين يديه ويعري وجه السيدة.

«بلى» قال الحاج حمد عن وجه جارتنا ثم زعم ما معناه أن

السيدة قد تركت ولدها يشد الجربي إلى الوراء لكي تريه وجهها «بالعاني» قال الحاج حمد.

«عيب عليك» قلت له هامساً لكي أجنبه التورط في سوء الظن لكنه لم يسمعني. كان يعلق عينيه مشدوهاً عبر فجوة الجربي، وكان شيطان الشعر قد ملك زمامه، وعندما مرت جارتنا بجانبه ألقى الشيطان قنبلته الشعرية قبل أن يتمكن من إيقافه.

«باشا طالع يوم العيد..» قال الحاج حمد لجارتنا هامساً.

«علا بوك» قال الفارس الصغير فوق عنق جارتنا بأعلى صوته، ثم ترجل غاضباً وشرع يبحث عن حجر لكي يكسر به رأس الحاج حمد.

سارعت لتدارك الموقف دفاعاً عن حرية التعبير، جردت الفارس الصغير من سلاحه وطلبت منه أن ينسى ما حدث باعتبار أن شعر الحاج حمد لا يستحق عناء القتال، بعد نصف ساعة من المفاوضات المعقدة وصلنا إلى عقد اتفاق للهدنة وعاد الفارس الصغيرة للجلوس فوق عنق الباشا. إذ ذاك بدأت معركتي مع الحاج حمد بشأن قضية الشكل والمضمون.

لقد فاجأني بقصيدة جاهزة عندما عدت للجلوس بجانبه.

أعني قصيدة في نصف ساعة، وليس ذلك فحسب بل كان الحاج حمد قد تخلى عن التزامه كلية بشأن واقعية المضمون وشرع يلفق القصص عن جارتنا التي رآها طالعة من زقاقنا مثل الباشا في يوم العيد وغمزها بعينيه فغمزته وأطلعت له اصبعها المخضب بالحناء لكي تسحن به كبده ثم دعته لتناول الشاي معها وتمايلت عليه مثل غصن البان وطلبت منه أن يصفها في شعره لكي تسير بأخبارها الركبان في جميع أنحاء الحجاز.

«هذا كله كذب» أقول للحاج حمد دفاعاً عن قضية الالتزام «إن جارتنا لم تقل لك كلمة واحدة ثم إنها لا تعرف الحجاز».

«ما يهمش» يقول الحاج حمد متناسياً دفاعه عن كلمة الميزاب، ثم يضع يده فوق كتفي بمثابة رشوة لكي أقف إلى جانبه ويعلن لي ما معناه أن كلمة الحجاز تصلح للقافية سواء قالتها جارتنا أو لم تقلها ثم إن المرء لا يحتاج إلى اسم ليبيا لأنه ليس ثمة امرأة ليبية تدعوك لتناول الشاي معها على أي حال.

كان ذلك يعني بلغة النقاد أن الحاج حمد شاعر لا منتم، وأنه لا يرفض بحر الرجز فحسب بل يرفض كل شيء في العالمَ ابتداء من حجارة الأطفال الذين يحمون أمهاتهم إلى اسم ليبيا نفسه. ورغم وضوح النزعة الإنسانية في هذا المنهج، ورغم أن المرء يحس بالتعاطف مع الحاج حمد في محاولته الجريئة لقهر حقائق واقعه بروح الفن، إلاّ أنه كان من الواضح في ضوء مقاييس النقد المعمول بها عندنا أن روح الحاج حمد نفسه ظلت باقية في جسده حتى الآن بالصدفة وحدها. لقد كانت رغبته في تجاهل الفرق بين الفن وبين الواقعية بالنسبة لزقاقنا رغبة مميتة من جميع الوجوه.

ثم حدثت الكارثة في اليوم التالي.

كنا نجلس إذ ذاك جنباً إلى جنب عند ناصية الزقاق، وكنا قد وصلنا إلى المعركة التي دارت بين موشى دايان وبين الحاج حمد عندما تقابلا ذات مرة في إحدى حانات روما. «كان الحاج حمد إذ ذاك في طريقه إلى مكة وكان قد جاء إلى الحانة لكي يودع ذنوبه عندما حملته الصدفة لمقابلة موشى دايان..» أعني هذه قصة جانبية لا علاقة لها بما حدث هنا.. الكارثة حدثت في قصة أخرى.

فقد اطلعت امرأة جارنا رأسها فجأة من فجوة الباب وأشارت

لزوجها بطبق الخبز. كان زوجها يجلس معنا عند ناصية الزقاق، وكان يتابع حكاية الحاج حمد، لكنه رأى طبق الخبز بطرف عينه وطلب مني بعينه الأخرى أن أحمله إلى الكوشة، كان ذلك عادة معمولاً بها في زقاقنا، أعني أن ينشغل كبار السن بموشى دايان، ويقوم الصغار بحمل طبق الخبز إلى الكوشة.

نهضت واقفاً وألقيت نظرة وداع على الحاج حمد، كنت أعرف أنه يراقب رأس جارتنا رغم انشغاله الظاهر بالكف الذي أعطاه لموشى دايان في روما، وكان من الواضح أن ذلك المخلوق اللامنتمي سوف ينسى العادة المعمول بها في زقاقنا ويتصور بطريق الخطأ أن السيدة تخصني ما دمت أحمل لها طبق الخبز ثم يسلط شيطانه الشعري في سيرتها بمجرد أن أوليه ظهري غافلاً عن صاحب البضاعة الحقيقي..

لقد تمنيت إذ ذاك لو كان بوسعي أن أحذره من هذا الخطأ المميت وأجعله يفهم بطريقة ما أن السيدة لا تخصني بل تخص المواطن الذي يجلس بجانبه، وأن بيتاً واحداً من الشعر غير الواقعي قد يكلفه حياته العجيبة بأسرها، لكن الحاج حمد كان قد قطع نصف الطريق إلى السماء على كتف شيطانه الشعري.

ودعته صامتاً وذهبت لأحمل طبق الخبز.

سمعته يطلق صرخته الأخيرة قبل أن أصل إلى الكوشة، أدركت بالطبع أن القصيدة قد ولدت وأن الشاعر قد مات.. رميت الطبق المشؤوم في الشارع. من أجل هذا الخبز خسرت ليبيا شاعراً

ونحن خسرنا قارىء البغدادي.

14 نوفمبر 1970

الرهان

في هلسنكي ثمة حمار واحد يجلس في القفص رقم 32 على يمين المدخل في حديقة الحيوان وقد وضعوا في خدمته مواطنة عجوزاً تدعى «ماريانا سالنوف» وكتبوا فوق قفصه أنه حيوان عديم الفائدة يكثر في البلدان المتأخرة ويتناسل مرتين في العام، وأنه ـ رغم الأسطورة الشائعة عن نهيقه ـ لا يستطيع في الواقع أن يصدر سوى صوت واحد يشبه إلى حد ما مواء القطة.

وقد خطر لي في بداية الأمر أن ذلك كله مجرد نكتة حمقاء يعدها مدير الحديقة للزوار عند المدخل، وأن المرء يعرف بالسليقة أن نهيق الحمير ليس في الواقع مجرد أسطورة، ولكن المواطنة «ماريانا سالنوف» أقسمت لي بشرفها مرتين على أن الأمر خالٍ من الهزل، وأن المعلومات المذكورة على القفص قد جاءت ـ بالطرق السمعية ـ من مصادر متخصصة في جامعة هلسنكي وأن الحمار يصدر حقاً بين حين وآخر صوتاً يشبه مواء القطة.

وأعطيتها لفافة تبغ وسألتها عما إذا كانت قد سمعت ذلك بنفسها خلال ساعات عملها في خدمة الحمار فهزت رأسها الصغير الحجم وقالت بثبات:

ـ لا. أنا لم أسمع ذلك بنفسي. إنني أستطيع أن أكذب عليك ولكني في الواقع لم أسمع هذا الحمار يصدر صوتاً من أي نوع، إنه يجلس في قفصه طوال النهار ويراقب زوار الحديقة ويبتسم لهم أيضاً، أعني هكذا يقول الزوار، ولكنه لا يصدر أية أصوات.

وقلت لها إن الزوار يتصورون أشياء كثيرة غير حقيقية في حديقة الحيوان وأن الحمار لا يبتسم ولا يموء مثل القطة أيضاً. إنه يغمض عينيه ويصرخ بملء صدره ويجعل المرء يستيقظ من نومه مذعوراً على بعد ميلين كاملين وأن المعلومات الواردة بشأنه من جامعة هلسنكي مجرد كلام للاستهلاك المحلي لكي لا يعرف المواطنون السعداء هنا ماذا يحدث في بلدان الناس غير السعداء.

ولم تفهم المواطنة «ماريانا سالنوف» كلمة واحدة.. وقد وقفت متكئة على القفص وطفقت تنظر إليَّ بشك واضح وقالت بفتور:

ـ أنا لا أعرف ماذا تعني ولكنك تكذب على أية حال. إن ذلك واضح في عينيك ثم إنك لم تر حماراً واحداً في حياتك.

ـ ماذا؟

إنك لم ترَ حماراً واحداً في حياتك. ذلك واضح في عينيك.

ووضعت يدي على صدري وأقسمت لها بالقديس «أوجستين» أنني أكاد أموت من الضحك نتيجة الأشياء الفظيعة التي تراها في عيني، وأن الحمار ابن العاهرة يصدر صوتاً قبيحاً يجعل المرء يقفز من مكانه، وإنني قفزت ذات مرة حتى رأيت أسقف المنازل على طول زقاقنا عندما صرخ أحد الحمير وراء ظهري فجأة.

وهزت المواطنة ماريانا سالنوف رأسها الصغير الحجم معلنة بوقار:

ـ إن ذلك أيضاً كذب.

يا إلهي ماذا يستطيع العناد المزري أن يفعل بأحد المواطنين. إن المرء لا يصدق أذنيه ولكن هذه العجوز البلهاء تعتقد حقاً أنني لم أر حماراً واحداً طوال حياتي.. يا إلهي أنا رأيت من الحمير أكثر مما رأيت من النجوم وسمعتها تصرخ في زقاقنا وفي الحي المجاور وعلى طول الطريق العام وفي وسطه أيضاً وفي منطقة الماجوري والفندق القديم، وأنا لم أر شيئاً حقيقياً في حياتي أكثر من الحمير.

وأغمضت المواطنة ماريانا سالنوف عينيها الخاليتين من الأهداف وجعلتهما تختفيان وراء قبعتها مثل زبيبتين زرقاوين مجعدتين ثم قالت باهتمام مفاجىء:

ـ أنا أعرف أنك تكذب، وأن الحمار لا يصدر صوتاً قبيحاً، وأعرف أنك لا تستطيع أن تراهنني.

ـ أراهنك؟ ..

ـ أجل، أعني تتركني أربح بعض نقودك، لأنك في الواقع ستخسر الرهان.

ـ لماذا؟ ..

أنت تعرف لماذا؟ لأن الحمار يموء مثل القطة. إن كل الكتب تقول ذلك ويقوله زوار الحديقة ورئيس قسم الأحياء في جامعة هلسنكي، وأنت تخسر الرهان.

ونظرت إلى الحمار. كان يتابعني بعينيه القبيحتين في دهشة واضحة، وكان يملك كل الناس إلى جانبه في هلسنكي وقد خطر لي أنني سأخسر الرهان حقاً أمام معلومات رئيس قسم الأحياء في الجامعة. فالمرء قد يصر على أية معلومات خاطئة مادام يعرف أن ذلك يحدث لصالح المواطنين السعداء الذين لا يجوز أن يسمعوا قط بالخوارق التي تحدث في بلدان الآخرين. وقلت للمواطنة إنني

لا أستطيع أن أراهنها، لأنني أعتبر ذلك من جانبي عملاً متسماً بالخداع، وإنني لا أريد أن أسرق نقود امرأة مثلها لمجرد أن الله لم يجعلها تولد في زقاقنا وتسمع بنفسها أية أصوات يمكن أن تصدر من حمير المنطقة المكسورة القلوب.

وهزت ماريانا سالنوف رأسها الصغير الحجم وقالت بعناد:

ـ أنا أريد أن أراهنك. هل تدفع مائة مارك؟

ولم يكن ثمة مفر من أن أقبل الرهان. لقد كان عملاً مزرياً ولكني لم أستطع أن أقنع تلك السيدة بأنها تلقى بنقودها من النافذة. وقد أصرت على القول بأنني سأخسر علي طول الخط وأنها بدأت ـ أيضاً ـ تفكر في لون الفستان الذي ستشتريه بنقودي. وعندما سألتها عما إذا كانت تعرف أنها قد تخسر ذلك الرهان قالت بثقة مضحكة:

ـ أنا لن أخسر شيئاً. دعك من محاولة خداعي. إنني أعرف ما أفعله بالضبط وأعرف أن الله لم يصب الحمار بشيء يدعوه إلى الصراخ. إنه يموء مثل القطة فحسب.

وأعلنت لها نيتي في إيضاح تلك النقطة، فأنا أعرف أن الحمار السيىء الحظ يملك أكثر من سبب يدعوه إلى الصراخ، وأن رئيس قسم الأحياء في جامعة هلسنكي يعرف ذلك أيضاً، وأن الطريقة الوحيدة للكشف عن هذه الحقيقة هي أن تتركني أذكر الحمار السعيد بتلك الأسباب.

وقالت المواطنة بثقة:

ـ افعل ما تشاء أنا لا أستطيع أن أفرض عليك شيئاً. ولكنك إذا جعلت ذلك الحمار يصدر صوتاً ما فسوف يبدو مثل مواء القطة وسوف تدفع لي المائة مارك.

ونظرت إليه مرة أخرى كان يجلس في منتصف القفص ويتابعني بعينيه القبيحتين في دهشة واضحة. كان أحد الزوار قد وقف على الجانب المقابل وطفق يحاول إغراءه بقطعة من الشيكولاته.. ولكن الحمار لم يهتم به، كان قد اكتشف أنني زائر مختلف حقاً عن الآخرين، وكان يريد أن يعرف لماذا أتشاجر مع خادمته.

وبدأت أتحدث إليه، كنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون قد نسي ماضيه كلية، وأن شيئاً ما في أعماقه القذرة لا بد أن يذكره بالنهيق إذا استطعت أن أجعله يعود بذاكرته إلى حياة أسلافه في الفندق القديم، وقد تحدثت إليه بالعامية الليبية المستعملة في الفندق القديم وقلت له أن إسلافه كانوا يعملون في جر عربات النقل المتوسطة في سوق الجريد، وأن المرء كان يضع في ظهورهم مشفة حادة تنغرز في العظم حتى تصل إلى النخاع.

ورفع الحمار أذنيه فجأة ثم وقف في منتصف القفص، وأطلقت المواطنة ماريانا سالنوف صرخة خافتة وقالت بذعر:

ـ ابتعد عن القفص. إنك تثيره بتعاويذك السحرية يا إلهي أين تعلمت هذه الأصوات الفظيعة؟

وأقسمت لها أنني لا أعرف أية تعاويذ سحرية، وأنني لا أتحدث سوى لغة محلية تستعمل في سوق الجريد ثم طلبت منها أن تكف عن مقاطعتي إذا كانت ما تزال راغبة قبض قيمة الرهان. وعندما عادت إلى الوقوف بجانب القفص كانت تقطب حاجبيها في شك واضح وكانت قد بدأت تحس أنها قد تخسر ذلك الرهان حقاً ما دامت تواجه زنجياً ساحراً.

وقلت للحمار المنتصب الأذنين إن القصة بدأت في ـ بنينة ـ

وأن المرء كان يحضر الحمير من تلك القرية السعيدة ويجعلها تعمل في نقل الذبائح المسلوخة من مجزرة الصابري إلى حوانيت اللحم في سوق الجريد. ثم اخترع أحد ما كروسة فظيعة تنزلق فوق عجلتين ثقيلتين من العجلات المستعملة في قطارات السكة الحديدية وربطها على صدر حماره وتركه يجرها عبر أزقة السوق طوال النهار وبعض أجزاء الليل.

وقد استطاع ذلك الحمال أن يحتكر وسيلة النقل في السوق وأصبح بوسعه أن ينقل أكثر من خمسة ذبائح في مرة واحدة وينقل أيضاً علب الحلوى التركية وأكياس الدقيق وبراميل الزيت.

وبالطبع بدأ بقية الحمالين يبحثون بدورهم عن عجلات السكة الحديدية ويضعون فوقها لوحاً من الخشب ويربطونها إلى صدور حميرهم لمواجهة وطيس المنافسة في سوق الجريد، وقد ازدادت العجلات ثقلاً بمرور الوقت وكبرت ألواح الخشب وراء مزيد من الحمولة حتى اكتشف أحد الحمالين الجشعين ذات يوم أنه قد وضع فوق كروسته الفظيعة أكثر مما يستطيع حماره أن يحتمل.

ووقف الحمّال حائراً في وسط الطريق ثم حكَّ رأسه فجأة وأخرج عصا غليظة وقال للحمار لأول مرة في تاريخ العالم «ار يا يهودي» ثم انهال على ظهره ضرباً بالعصا وحدثت المعجزة في النهاية وأثبت الحمار أنه يستطيع أن يجر أكثر مما يحتمل إذا شتمه المرء ودعاه مجرد يهودي وانهال على ظهره ضرباً بالعصا.

ومشى الحمار في وسط القفص بقلق، وتحركت المواطنة ماريانا سالنوف من مكانها ولكن أحداً منهما لم يقل لي شيئاً. كانا ينصتان بتركيز واضح.

وقلت للمخلوق السعيد إن الحمالين في سوق الجريد بدأوا منذ ذلك اليوم يعملون في تطوير العصا. وقد وضعوا في طرفها أول

الأمر مسماراً حاداً قصير الرأس ثم وضعوا مسمارين. وعندما ازداد نشاط السوق بعد اكتشاف البترول بدأ الحمالون يضعون مشفة كاملة.

وقد عملت تلك الآلة الحادة في ظهور أسلافك بدأب وساهمت في إنعاش حركة النقل داخل أسواق ليبيا إلى حد لم يسبق له مثيل ولكنها كانت أيضاً تترك وراءها جروحاً عميقة الغور تزدحم إلى حافتها بالقيء والذباب الميت.

ودار الحمار في القفص مرتين متتاليتين ثم هزَّ ذيله وطفق يصدر صوتاً واهناً يشبه إلى حد ما مواء القطة، وضحكت المواطنة ماريانا سالتوف وبدأت تستعد لإعلان انتصارها بإشارة متزنة من يدها، وقلت للحمار عبر سياج القفص:

ـ أنا أردت أن أذكرك بما حدث فحسب أجل لقد بدأت القصة في بنينة ولكنها انتهت نهاية مفجعة في سوق الجريد وقد رأيت أحد أسلافك ذات مرة يجر عربة محملة بصناديق الملح المرصوفة فوق لوح الخشب إلى السحاب ورأيت الجراح العميقة الغور في صدره تنزف قيئاً منتناً والذباب يلعق القيء ورأيت عينيه يأكلها القراد.

وهزَّ الحمار رأسه فجأة كأنه يريد أن يطرد شيئاً من قفصه وقلت له:

ـ أجل لقد رأيته ينزف قيئاً تحت حمولة الملح ورأيت الحمّال يغرز مشفاته في جرحه حتى جعله يسقط على الأرض مسلوخ الركبتين ثم طفق يضع الملح على جراحه.

ونهق الحمار ..

لقد أغمض عينيه وطفق يصرخ بملء صدره حتى اهتزت

جدران القفص، وتوقف الزوار وعمّال الحديقة والمارة في الشارع الخلفي لكي يتبينوا طبيعة ذلك الصوت المفجع، وصرخ الأطفال في كل البيوت وطأطأت أشجار التمبر رؤوسها وطفقت تتهامس بعصبية، وانشق قلب التلة المجاورة، وبكى الضبع في القفص رقم 192 وانطلقت المواطنة ماريانا سالنوف تجري مذعورة في اتجاه الباب الرئيسي دون أن تتذكر أنها مدينة لي بمائة مارك.

يا إلهي ماذا يستطيع العناد أن يفعل بأحد المواطنين.

5 يونيو 1969

إسكتش

المقاهي في ليبيا مخصصة للرجال فقط..

وكذلك الشارع العام وملعب الكرة والشطئان الرملية المشمسة وحديقة البلدية والشقق المفروشة في الدقي. كل شيء مخصص للرجال، أما النساء الليبيات فليس لهن سوى نطع نعجة العيد الذي يجلسن فوقه في انتظار الأتوبيس الذاهب إلى الجنة.

الأمر يخلو من العدالة، ولكنه ـ في الواقع ـ لا يخلو من المنطق، فالعالم عندنا صنعه الرجال وحدهم وبنوا فيه المقاهي وملعب الكرة والشطئان الرملية المشمسة وقرروا أن يحتكروا ذلك لأنفسهم باعتبار أن المرأة التي لم تضع في عالمنا طوبة واحدة ـ لا تستحق أن تملك فيه شيئاً سوى نطع نعجة العيد.

هكذا بدأت القصة واكتشف الرجل مكانه المفضل عند رأس الزقاق حيث ظل بوسعه ـ طوال ألف عام ـ أن ينعم بلعبة السيزة هادىء البال ويفتل شواربه بقليل من البصاق ويعوج طاقيته لكي يعرف المارة أنه ربح الطرح ثم يعود إلى بيته في المساء وينعم بالحب وطبيخة القديد.

وكان الرجل الليبي طفل مجتمعنا المدلل.

وكان يلبس كاطه المحروقي يوم الجمعة ويذهب للدعاء على النصارى في الجامع مطالباً بحصته من نسائهم وأطفالهم رغم ما يقال في ميثاق الأمم المتحدة، ثم يجلس عند رأس الزقاق ويسلخ جلد جيرانه بالحكايات الملفقة ويلعب السيزة بقطع الزجاج والنوى ويعوج طاقيته وينتظر غروب الشمس لكي يذهب إلى المنط في الشارع الخلفي ويغني فيه بالعلم ويشرب البوخة بدون مزة.

وكان الرجل الليبي يشرب البوخة دائماً بدون مزة، وكان يعتقد أن أفضل صفات الرجل على الإطلاق أن يشرب أي شيء بدون مزة، أو على الأقل بقشرة الليمون وحدها، وأن يطيل شواربه لكي تجلس فوقها الصقور العاطلة ويكسر رأس خصومه بالحبلة ويبول على رأس الباشا ويغني بالعلم قبل أن يشرب طاسته.

وكان الرجل الليبي يغني دائماً بالعلم، وكان يقنع مستمعيه بأنه وقع في الحب، وأن حبيبته التي تشبه الغزال قد أحرقت قلبه وأضرمت النار في أمعائه وحرمته من النوم وجعلته يذرف الدموع الدفينة على طاسة البوخة. وفي العادة لا يكتشف المستمعون أن حبيبته ـ في الواقع ـ تجلس في انتظاره فوق النطع طوال الليل، وأنها لا تستطيع أن تحرق قلبه أو تحرق شيئاً آخر يخصه بما في ذلك عشاءه دون أن تتعرض لعلقة مميتة بالقبقاب، وأن المرأة الليبية ـ التي تشبه الغزال في أغنيات العلم ـ تعمل في البيت مثل بغل بياع الماء أكثر من خمس عشرة ساعة كل يوم.

تنهض في الصباح لكي تكنس بالعرجون. وتفرش الحصيرة وتصنع القهوة ثم تحشر رأسها بين ضلفتي الباب وتنتظر أول طفل يمر بالمنطقة لكي يشتري لها الخضار وتطبخ الغداء وتعجن الخبز وتحشر رأسها بين ضلفتي الباب وتنتظر أول طفل يمر بالمنطقة لكي يحمل لها الخبز إلى الفرن وتغسل الصحون وتطبخ العشاء وتحشر

رأسها بين ضلفتي الباب وتنتظر أول طفل يمر في المنطقة لكي يحضر لها الخبز من الفرن، ثم تزحف إلى فراشها محطمة الركبتين وتنتظر زوجها الذي ضاع في المنط بين الغزلان والبوخة ريثما يعود عند الفجر وينال حصته من الحب.

وكان الرجل الليبي أفضل من يمارس الحب في العالم.

وكان يعتقد أن كل ما يحتاج إليه هو أن يحك شواربه المزينة بالصقور على وجه زوجته، ويربط شعرها على عامود السرير ويتركها تختار بين المسحة وبين الفأس باعتبار أن تلك الألغاز المميتة مجرد نكتة عاجلة للتغلب على مشكلة الخجل، فإذا رفضت السيدة أن تدخل في تلك اللعبة، فإنه ـ في الغالب ـ يعيدها إلى المصنع ويكتبها ناشزاً في المحكمة. والناشز اصطلاح ليبي معناه على وجه التقريب: بضاعة غير صالحة للاستعمال خلال العشرين سنة القادمة.

وكان الرجل الليبي يكتب كل القوانين.

وكان يحكم العالم ويصر على أن يسعل عند الباب لكي يعرف سكان البيت أن السلطان قد وصل ويسخنوا له العشاء ويدسوا أطفالهم تحت السدة ويلتزموا الصمت لكي لا يعكروا صفو أفكاره. فإذا بكى الطفل لسبب ما ضربه السلطان بعصا المروحة، وإذا بكى أكثر ـ نتيجة الألم الصادر عن العصا المذكورة ـ ضربه بحزام البنطلون، وإذا قررت الغزالة المحطمة الركبتين أن تتحدث معه تركها تموت من الخجل بنظرة مؤداها «الرجاء أن تكفي عن تكسير رأسي» وإذا لم تفهم الغزالة ذلك على الفور يكسر رأسها ويطلقها بالثلاث، ثم يذهب لشراء امرأة جديدة من الشارع الخلفي.

وكان الرجل الليبي قادراً دائماً على شراء امرأة جديدة. وكان

يعرف أن كل ما يحتاج إليه هو أن يلبس كاطه المحروقي ويعوج طاقيته ويذهب لزيارة جاره بعد صلاة العشاء ثم يقول له بعد الطاسة الأولى الخالية من السكر: أنا جئت راغباً في يد ابنتك.

ويقول الجار: إنها غالية بالنسبة لك وقد تكلفك أربعين جنيهاً.

ويتدخل الوسيط ـ الذي يأتي عادة في صحبة الزوج لابساً كاطه المحروقي أيضاً ـ لكي يخفض السعر إلى تسعة وثلاثين، ثم تصل الطاسة الثانية المزودة بالسكر، ويقف الغلام الذي أحضرها لكي يصيخ السمع وينقل أنباء المحادثات إلى الداخل.

وفي العادة تتم الصفقة بعد الطاسة الثالثة وينقل الغلام إلى الداخل نبأ الاتفاق النهائي، وينقل التفاصيل المطلوبة عن شكل الزوج وعدد الصقور الواقفة فوق شواربه وأسنانه الذهب. ثم يحدث الزواج.

وكان الزواج يحدث دائماً بين الرجال وحدهم.

وكانوا يجتمعون في المربوعة ويشربون الشاي ويتبادلون النساء مقابل أرطال الفجرة والبدل غير المفصلة ثم يجتمعون في المنط ويمتدحون بعضهم بأغنيات العلم ويعلن أحدهم للآخر ـ على طاسة البوخة ـ أنه «علم عالي» مثل برج إيفل، فيضع الآخر اصبعه في أذنه ويؤلف له أغنية في الحال مؤداها أنه أيضاً علم أعلى من البرج المذكور ثم يتبادلان الثناء إلى أن يطلع الصباح، ويضعان «الحرمة» في العربية التي تقلها إلى بيتها تحت حراسة مشددة، أو يتشاجران من أحل الحرمة ويطعن أحدهما الآخر بمطواته ويعلن في العرس التالي أنه قتله دفاعاً عن الشرف.

وكان الرجل الليبي يفعل أشياء كثيرة دفاعاً عن الشرف، وكان يقتل رجلاً آخر دفاعاً عن شرف العاهرة في المنط وكان يكسر رأس

زوجته دفاعاً عن شرفه أيضاً. وقد اخترع لها العباءة الليبية الدقيقة الصنع لتأدية هذا الغرض، واخترع لها الرقعة والسراويل التي تسقط فوق ركبتها واخترع لها السدة والباب الجواني وختم الدخول ليلة الزفاف وطفق يدسها أكثر وأكثر كل يوم حتى جعلها تختفي كلية من ليبيا بأسرها.

وكان الرجل الليبي يفعل ذلك لمجرد الدفاع عن شرفه. وكان يعتقد أنه مطالب بإخراج مطواته في الحال والقتال إلى آخر قطرة من دمه للحيلولة دون قيام أية علاقة بين امرأة تخصه وبين أي رجل آخر. حتى إذا كانت تلك المرأة مجرد عاهرة، في المنط، حتى إذا كانت مجرد امرأة للإيجار فإن الرجل الليبي مستعد للقتال من أجل شرفها ما دامت فترة إيجاره لم تنته.

لذا، فلم يكن ثمة حل آخر لإنقاذ الشعب الليبي من الانقراض بالمطواة سوى أن تختفي المرأة من ليبيا كلية وتدس نفسها تحت السدة.

واختفت المرأة، ومشى الرجل وحده في الشارع، ثم جلس وحده في المقهى وفي ملعب الكرة والشطئان الرملية المشمسة وحديقة البلدية، واكتشف في نهاية المطاف أنه وحيد، وأنه أكثر وحدة من أي مخلوق آخر في العالم. ثم اكتشف أنه يعيش في مجتمع من نسخة واحدة، مجتمع يبدو دائماً بمثابة امرأة هائلة الحجم تعكس له وجهه من كل الاتجاهات ولا شيء غير وجهه. وفي لحظة ما اكتشف الرجل الليبي الذي خبأ امرأته تحت السدة ـ من أجل شرفه ـ أنه يجلس في عربة الركاب المزدحمة ويأخذ طريقه للبحث عن شقة مفروشة في الدقي.

ووجد الرجل الليبي ـ الذي خبأ امرأته تحت السدة من أجل شرفه ـ شقة مفروشة في الدقي وأحضر إليها امرأة أخرى وطفق

يمارس معها الحب الليبي في أرض الغربة دون أن يتذكر بالطبع أن ذلك يعرض شرفه للسمعة السيئة، فالفرق المعروف بين الرجل وبين المرأة في ليبيا، أن الرجل وحده يكتب قوانين مجتمعنا والمرأة تقرأها تحت السدة.

وكان الرجل الليبي يكتب قوانين مجتمعنا.

وكان يطلق زوجته بالثلاث إذا رآها أمام الباب ويفتل شواربه بقليل من البصاق لكي تجلس فوقها الصقور العاطلة في الدقي، وكان يقتل ابنته بمطواة إذا شاء حظها السيىء أن تولد بدون غشاء البكارة، ويجري لاهثاً بعد ذلك لإغراء فتيات الدقي بكاطه المحروقي، وكان يضع عجائزه البائسات داخل دروع حديدية موثوق بها وينطلق ممتلئاً شبقاً لمطاردة أردأ عاهرات العالم مذاقاً.. وأحياناً لمطاردة الغلمان.

وكان الرجل الليبي ـ الذي خبأ امرأته تحت السدة من أجل شرفه ـ يطارد الغلمان باعتبارهم البضاعة الوحيدة المتوفرة في السوق، وكان يحضرهم معه إلى المنط لكي يجعلهم يلبسون ملابس النساء ويرقصون له على طاسة البوخة.

وكان بعض الرجال الليبيين يلبسون ملابس النساء ويضربون الدربوكة في المنط باعتبارها الحل الوحيد الممكن قبوله داخل هذا النظام المليء بالذكور الشرفاء.

كان ذلك في الماضي.. أما الآن فإن الليبيين، فجأة بخير..

أم ماذا؟

6 يوليو 1969

رأساً على عقب

الحاج الزروق

الفتاة اسمها «دايانا». طويلة شقراء، في خدها خاتم سليمان وعمرها عشرون عاماً. أعني عندما تقابلنا أول مرة كان عمرها عشرين عاماً وكانت تتعاطى الخطابة والحشيش في ميدان هايد بارك في مدينة لندن. تقابلنا إذ ذاك يوم الأحد ووقعنا في الحب عند الظهر من يوم الاثنين وتشاجرنا وانفصلنا في صباح يوم الأربعاء والتقينا لآخر مرة عند العصر في حانة قرب المكتبة العامة. كانت دايانا في صحبة رجل آخر لكنها بالطبع دعتني للجلوس معها على المائدة نفسها لكي لا تفوتها فرصة تعذيبي بالغيرة.

جلسنا طوال المساء.. تحدثنا عن السياسة والغيرة وأسعار المشمش في لندن. تحدثنا ـ بملل بالغ ـ عن ظاهرة الملل، وعندما اكتشفت دايانا أنني لا أؤدي اللعبة حسب الخطة، قررت أن تعاقبني عقاباً مباشراً وتركت كل حديث في العالم وانطلقت تلعن الرجل الشرقي بدون مناسبة. بعد برهة انضم إليها صديقها وشرعا يتعاونان معاً على أداء المهمة الصعبة.

قالا لي إن الرجل الشرقي لا يطاق، وإنه مخلوق مغرور

وجاهل، وإنه يضرب أطفاله بالسوط ويركل امرأته في رأسها. قالا لي إن الرجل الشرقي يعامل المرأة كما يعامل السلطان جاريته العوراء وأنه يتركها تغسل له رجليه وتخلع له حذاءه. قالا لي إن الرجل الشرقي يستحق الذبح لأنه لا فائدة من ورائه، وعندما اكتشفا أنني لا أرغب في الدفاع عن ضحيتهما الرديء السمعة وإنني أتفق معهما في معظم التفاصيل نظرا لي بسخط وقررا أن يهجرا المائدة.. كانت جلسة فاشلة من جميع الوجوه.

بعد خمس سنوات قابلت دايانا مرة أخرى.

كانت تجلس في الحانة نفسها وتدخن السجائر نفسها وتتحدث في السياسة، لكن صديقها كان بالطبع وجهاً جديداً وكان يمضغ اللبان بأسنانه الأمامية. وقد جلسنا هذه المرة طوال المساء أيضاً وتبادلنا الأحاديث القديمة بالملل القديم نفسه، وحاولت مرة أو مرتين أن أوجه الحديث في اتجاه الرجل الشرقي غير أن دايانا لسبب ما ظلت تصر على تغيير الموضوع. عند منتصف الليل دعتني للذهاب معها إلى بيتها واضطررت لحملها عبر السلالم واضطررت لتفتيش جيوبها بحثاً عن مفتاح البيت واضطررت أيضاً لجرها عبر الردهة إلى غرفة النوم. هناك اكتشفت مفاجأة صغيرة.

فقد كان صديقها القديم يحتل السرير مع ثلاثة أطفال. كان عارياً فيما عدا ذقنه الملتحية، وكان يحضن أطفاله مثل دجاجة مسلوخة ويشخر برضاء.. وعندما أيقظته لكي يعينني على حمل امرأته إلى فراشها فتح عينيه ببطء ثم قال لي بالحرف الواحد «مرحباً بك في لندن. متى جئت؟ إن المطبخ على اليمين من هنا. ضع إناء القهوة على النار. سوف أنضم إليك فوراً»..

تركت دايانا تسقط على الأرض وذهبت إلى المطبخ. كنت محتاجاً حقاً إلى فنجان القهوة وكان مشهد الأطفال النائمين

بالقرب من جثة أمهم المخمورة مشهداً لا يستحق التأمل. في المطبخ تحدثنا ـ بدون إثارة ـ عن دايانا.

كان زوجها يرغب في الشكوى من سلوكها، وكان قد تعود أن يشكو لطوب الأرض لكنه بالطبع ظل يفضل أن يشكو لمن يزوره في مطبخه بما في ذلك رجل شرقي مثلي. وقد بثني شكواه طوال الليل وأحرق حلقي بالتبغ والقهوة الرديئة وأخبرني أنه تزوج دايانا رغم أنفه، وأنه لم يكن يملك فرصة للاختيار سوى أن يتزوجها أو يتركها تذهب مع صديقها الآخر الذي يمضغ اللبان بأسنانه الأمامية. أخبرني أنها أغرته بالزواج منها ودفعت له مائة دولار بمثابة حليب وأنجبت له طفلاً بعد تسعة أيام من عقد القران ثم تركته مع الطفل وذهبت إلى صديقها الذي يمضغ اللبان بأسنانه الأمامية.

تحدثنا عن دايانا طوال الليل وتحدثنا عنها في اليوم التالي أيضاً عندما ذهبت إلى الشغل، وألصقنا بها أسوأ النعوت، واتفقت مع زوجها على أنها امرأة فاسقة قليلة التربية، واتفق معي زوجها على أن صديقها الجديد سخيف وأبله ووسخ الأذنين، لكن أحداً منا لم يجرؤ على ذكر الصفة الحقيقية الوحيدة التي تليق بدايانا. لقد كنا نعرف تلك الصفة معرفة راسخة، وكنا نعرف بالذات أنها صفة راسخة حقاً لكننا لم نجرؤ على ذكرها لأنها بدت قبيحة إلى حد لا يحتمل. إن دايانا لم تكن شيئاً في الواقع سوى رجل شرقي متنكر في جثة امرأة.

كانت الوجه الآخر للدينار نفسه.

رب الأسرة أحمر العينين الذي ندعوه في الشرق باسم الحاج الزروق. لم يكن ثمة فرق حقيقي بين الحاج الزروق وبين دايانا الشقراء سوى أن أحدهما يعتبر نفسه سيد المرأة والآخر يعتبر نفسه

سيدة الرجل. الباقي مجرد اختلاف في لون القشرة نظراً لتنوع المناخ.

المرأة الغربية أيضاً «تخدم» على الأسرة.

تكسب لها لقمة العيش. تحميها من الفقر ونوائب الزمان، وتقبض الثمن مقدماً نظير هذه الخدمة. المرأة الغربية أيضاً ـ مثل الحاج الزروق ـ تتطوع بإطعام الأسرة لكي تطيعها الأسرة. تتطوع برعاية الرجل لكي يخدمها الرجل. المرأة الغربية والحاج الزروق ليمونة واحدة قد تختلف في المظهر لكنها لا تختلف في طعمها الحامض. إن عشرين قرناً من الفلسفة والحضارة لم تحل مشكلة الأسرة ولم تنجح في خلق قاعدة التعاون بين أفرادها لكنها نجحت ـ بصورة سخيفة جداً ـ في قلب اللعبة القديمة رأساً على عقب.. فالأسرة الشرقية التي ترزح تحت وطأة الحاج الزروق الوسخ الأذنين ظهرت مرة أخرى في الغرب باسم مختلف وسيد مختلف. إن دايانا ـ والحق يقال ـ أجمل قليلاً من الحاج الزروق ولا تفوح منها رائحة المضغة ولا تنس أن تغسل رجليها قبل أن تدخل إلى جناح الحريم لكن المشكلة أن هذه الفروق سطحية أكثر مما ينبغي.

ليس ثمة اختلاف في الجوهر. لقد قلت ذلك لدايانا عندما عادت مخمورة في آخر الليل وطلبت مني أن أعدّ لها فنجاناً من القهوة. قلت لها ليس ثمة اختلاف في الجوهر، وقلت لها أيضاً إنني لن أعد القهوة لأنني في الواقع رجل مثلها بالضبط، وعندما رفعت فردة القبقاب تشج رأسي رفعت بدوري الفردة الأخرى ودعوتها إلى أن تجرب حظها في شج الرؤوس. كنا على وشك أن ندخل صراعاً دموياً مروعاً لولا أن زوجها تدخل في الوقت المناسب وصرخ في طلب النجدة من الجيران.

قلت لكم ليس ثمة اختلاف في الجوهر.

فالحاج الزروق قد تغير من الخارج في مدن الغرب المتحضرة، أعني تغير جداً حتى انقلب رأساً على عقب فيما يخص مظهره. إنه لم يعد يرتدي الطاقية الحمراء والزبون المحروقي. لم يعد يلوك المضغة عند رأس الزقاق ويعبث بسبحته ويحصي أسنان المارة. لم يعد يفعل شيئاً من هذه اللعب البدائية. إنه الآن يرتدي الميني والأحذية الطويلة العنق ويقود عربته المفتوحة بيد واحدة ويفضل اللبان وأحمر الشفاه على المضغة لكن الحاج الزروق رغم ذلك كله ما يزال في الواقع هو الحاج الزروق.

6 يناير 1972

المفتاح

واحد مسافر ..

حقيبته مصنوعة في سوق الجمعة من جلد جمل أجرب ومربوطة بحبل ليف وفوقها نجمة سيدنا سليمان وكتابة رديئة أخرى.. واحد مسافر يلبس طاقية حمراء مزينة بقرن عاجي ضد الحسد ويلبس سروالاً ضيقاً مثل رقبة الغزال ويربط ذلك السروال بتكة ملونة.

واحد مسافر.. حمل حقيبته وجاء إلى مدينة استوكهلم هارباً من سوق الجمعة، كانت حياته هناك مصنوعة أيضاً من جلد جمل أجرب ومربوطة بحبل ليف وكان قد قرر أن يبحث عن حياة أفضل وجاء إلى مدينة استوكهلم. أنا قابلته قبل أن يهبط من القطار.

كان يجلس في مقاعد الدرجة الأولى، كانت تجلس أمامه امرأة سويدية طويلة الساقين، كان يدخن بنهم ويقول لنفسه بشأن السيدة «هذه بضاعة مختلفة عن مبيعات سوق الجمعة. هذه مفتاح مضمون إلى الفردوس دعني أمسك يدها وسوف أضمن لك أنني

لن أعرف الشقاء بقية حياتي رغم كل ما حدث في سوق الجمعة».
تركته يمسك يدها..

قلت له إذ ذاك إن الأمر غاية في البساطة وأن كل ما تحتاج أن تفعله لكي تمسك يد هذه السيدة هو أن تمد مخلبك وتمسكها وتقول لها كلمة أو كلمتين عن الحب أو حرب فيتنام، إن السعادة في مدينة استوكهلم قريبة المنال إلى حد لا يحتمل.

مدّ مخلبه واصطادها بضربة واحدة، لم يكلفه الأمر شيئاً سوى لفافة تبغ وملاحظة عابرة عن حالة الطقس وعود ثقاب من نوع «المشعل» كانت صفقة رخيصة بالنسبة له وكان يعتقد أنها رخيصة حقاً لأنه قضى حياته يتعامل بأسعار الحب في سوق الجمعة، بعد أسبوعين قابلته مرة أخرى في إحدى حانات الدرجة الثانية.

كانت ما تزال تجلس أمامه، أعني السيدة التي دعاها باسم المفتاح.. وكان ما يزال يمسك يدها في مخلبه ويدفع لها ثمن المشروب لكنه لم يكن يتحدث عن الحب أو حرب فيتنام أو حقيبته المصنوعة من جلد جمل أجرب لم يكن يتحدث معها عن أي شيء..

«ماذا حدث؟» سألته متظاهراً بالدهشة.

«ماذا حدث؟» سألني بدوره متظاهراً بالغفلة.

«أعني فيما يخص المفتاح» قلت له من باب الشماتة، «ألم تفتح لك السيدة أبواب الفردوس؟ لماذا لا تتحدث معها أو تقرصها في ركبتها كالعادة. إنك تبدو مكتئباً إلى حد لا يصدق».

لم يقل لي شيئاً، لم يتحدث معي أيضاً، لقد جلسنا ذلك اليوم في الحانة صامتين وراقبنا المارة من النافذة وسمعنا أحد رواد الحانة يغازل الساقية واتهمناه بقلة الأخلاق وجلسنا صامتين إلى منتصف

الليل ثم افترقنا ببرود ووقفت أراقبه فيما كان يجر مفتاحه وراءه عبر الميدان المزدحم مطرق الرأس. كنت أعرف أسباب صمته عن كثب.

أعني أفهم السر.

وأفهم بالذات أن المرء ـ أحياناً ـ يخدع نفسه طائعاً ببعض الفلسفة ويهرب من سوق الجمعة بحثاً عن الفردوس، يركب رأسه من باب الملل من نفسه ويعلق ذنوبه في عنق سوق الجمعة ويتخذ قراراً نهائياً جداً بالبحث عن جثته الضائعة ثم يجد المفتاح جاهزاً على مقعد أول قطار يصادفه ويسارع بمد مخلبه قبل أن يذكر اسم الله ويفتح باب الجنة على مصراعيه. إذ ذاك يرى بعيني رأسه أنه يفتقد سوق الجمعة.

فالباب الأسود ينطبق وراءك بمجرد أن تضع رجلك في الداخل، أعني مثل جميع الأبواب السحرية السوداء ينطبق الباب وراءك إلى الأبد ويطرق سمعك صراخ الضحايا المسحورين في العتمة وتدرك على الفور أنك وقعت ضحية مثلهم في الفخ وأنك تفتقد ضوء الشمس في سوق الجمعة، لكنك تسارع بالصراخ منذ أول لحظة، إنك ستحتاج إلى سنة أو سنتين ريثما تغالب وقع الصدمة بالصمت المطلق وبعد ذلك.. ياه.. بعد ذلك تنهق يائساً مثل الحمار بقية حياتك. أنا سمعته ينهق عندما قابلته بعد سنتين.

كانت ما تزال تجلس أمامه، أعني السيدة التي دعاها باسم المفتاح. كانت وجهاً جديداً بالطبع لكنها كانت مفتاحاً على أي حال مصنوعاً لأداء المهمة نفسها القديمة وقد جلست أمامه وشرعت تتبادل النظرات مع رجل آخر على المائدة المجاورة فيما انشغل هو بذكرياته عن الجنة الضائعة في سوق الجمعة.

حاولت أن أتجنبه وأهرب من الباب الخلفي، كنت أعرف أن

فترة صمته قد انتهت وأنه قد وصل الآن إلى مرحلة الحمار وكنت أرغب في قضاء وقتي بالنهيق لنفسي لكنه رآني بعين قلبه المحترق وانطلق يركض في أثري. ركضنا طوال الليل.

ذرعنا المدينة من أقصاها إلى أقصاها، تحدثنا أول الأمر عن النساء من باب الرغبة في التفاخر. قال لي إنه هجر فتاته جينا واستولى على بربارا ثم هجرها بدورها وخطف قلب إزميرالدا وقلت له إن روزينا قد هجرت صديقها وجاءت في إثري وإنني أدرت لها ظهري بعد أسبوعين وذهبت في أثر كاتانيا.. بعد ذلك أخبرني أنه أغوى سيدة غنية متزوجة في مدينة الحدائق وأنها قد اشترت له ولاعة ذهبية ووعدت أن تحمله معها في رحلة سياحية إلى جزر الكناري، وأخبرته بدوري أنني أغويت سيدة أخرى وأنها حملتني معها في رحلتين إلى جزر الكناري، بعد ذلك تحدثنا عن المشروبات وحفلات الرقص وليالي الصيف المقمرة في «روفان» والبحيرات الشمالية ووجبة الكافيار في عيد الفصح.. ثم حدث شيء مضحك: لقد شرعنا نتحدث عن سوق الجمعة.

لم نقل عنه شيئاً مثيراً، لم نكذب بشأنه كذبة واحدة، لم نتعمد أن نتحدث عنه أصلاً لكن الحديث بدأ فجأة دون أن يدري أحد منا ودون أن نحس بالضيق أو السعادة أو الرغبة في اختلاق أية قصص.. لقد كنا نتحدث عن جنتنا الضائعة وكان الحديث مؤلماً جداً من وراء بابنا المسحور.

«أنا أفتقد الشمس»، قال الحمار «أفتقد شوارعنا المشمسة، أفتقد البلد والناس وزحام سوق الجمعة ومن يقول لي صباح الخير. أنا أزمع أن أعود من حيث جئت، أحمل حقيبتي المربوطة بخيط ليف وأركض في اتجاه بلدنا وأركع على ترابها في طلب المغفرة. هذا ما أزمع أن أفعله، أركض في اتجاه بلدنا وألثم ترابها الطيب وأحضنها

بين ذراعي.. هذا ما أزمع أن أفعله. فوراً في اتجاه بلدنا» كان يهذي بسوق الجمعة.

وكنت أعرف علامة الهذيان عن كثب، فالمفتاح الذي يجده المرء على مقعد القطار لا يفتح أمامه باباً على الجحيم فحسب بل باباً إضافياً آخر على أسوأ دهليز يستطيع أن يتوه فيه إلى الأبد، إنه يمزق روحه قطعتين، قطعة في سوق الجمعة وقطعة في استوكهلم ويتركه يركض طوال حياته بين هاتين النقطتين المتباعدتين، يعيش في سوق الجمعة بنصف روح ويهرب من شقائه لكي يعيش في استوكهلم بنصف روح أيضاً. أبداً لن يعيش بروحه كاملة، أبداً لن يجد السلام.

إلاّ ..

أعني إلاّ إذا حدثت المعجزة تحت وطأة الألم المذهل وطالت سنوات العذاب واستدار المرء ذات مرة في طلب المعونة من نفسه. إذ ذاك قد يجد المفتاح.

ويكتشف أنه لا يحتاج إلى أن يمسكه بيده أو يتبرع له بلفافة تبغ أو يتحدث معه عن الحب وحرب فيتنام. يكتشف أنه رخيص حقاً إلى حد لا يحتمل وأنه وحده ـ دون أي مفتاح آخر في العالم ـ يستطيع أن يفتح باب الجنة الحقيقية. ذلك يحدث عندما يستدير المرء ذات مرة في طلب المعونة من نفسه.

«الباقي كله نهيق» أقول للحمار «الباقي مجرد صراخ وراء الباب المسحور، كلام في الوادي لعبة لا طائل من ورائها سوى قتل الوقت بالوقت. إن الحل ليس في مدينة استوكهلم وليس أيضاً في سوق الجمعة أو جزر الكناري والبحيرات الشمالية. الحل في نفسك المريضة بداء الملل والشبع والعقد الجنسية والشعور بالعزلة، الحل في نفسك الرعناء التي ماتت في جلد جمل أجرب وقادتك

لكي تموت هنا دون أن تدري. إنني لا أريدك أن تصدقني قبل أن تذهب فوراً إلى سوق الجمعة وتجرب بنفسك هذه الحقيقة الثمينة وتعرف أنك ما تزال تحس بالملل والغربة معاً وأن سوق الجمعة قد أقفل أبوابه إلى الأبد وأن شمسه مطفئة» لم يفهم الحمار.

لم يصدق كلمة واحدة مما قلته له، إنه ما يزال يحتاج إلى سنة أو سنتين ريثما يخرج من مرحلة الجري في الدهليز ويتعود على الرؤية في العتمة. ما يزال يحتاج إلى أن يعود مرة أو مرتين إلى سوق الجمعة ويصرخ على بابه المسحور ويفتقد استوكهلم.. ذلك قدر مكتوب على جبين ابن آدم أن يعود إلى الجنة من سقيفة الجحيم وسوف يعود.

بدل طاقيته الحمراء شعر طويل أسود، بدل سرواله رقبة الغزال سروال طويل أسود بدل التكة الملونة حزام عريض أسود، سوف يعود مختلفاً من الخارج لكنه من الداخل ما يزال - كما خرج من سوق الجمعة - مجرد واحد مسافر إلى نفسه!

15 يناير 1972

كم قرشاً يساوي الإنسان؟

«كلماتنا أصبحت أكثر مرارة نظراً لارتفاع ثمن السكر»

الحلاقة حرفة إنسانية، أعني الإنسان وحده يفتح دكاناً لكي يقص فيه شعر مواطنيه ويشذب لحاهم ويرشها بالفيليت مقابل عشرة قروش للرأس.. ليس ثمة حيوان آخر يفتح دكاناً للحلاقة..

كذلك الزراعة حرفة إنسانية والصناعة وقراءة البخت وبيع صحون الفول في المطاعم.. ليس ثمة حيوان آخر يمارس هذه المهن سوى الإنسان وحده، وأنت تعرف ذلك بالطبع فاعرف الآن أن الحرب أيضاً حرفة إنسانية..

وسيلة لكسب العيش بعرق الجبين. عمل عادي لا يختلف في شيء عن أي عمل آخر يؤديه المرء لكي يكسب قوت عياله. وإذا كنت لا تنوي أن تصدق هذه الخارقة فتفضل ذات مرة بمراجعة القاموس. إن جميع اللغات في العالم ـ بما في ذلك لغة الأسكيمو ـ ستقول لك «كسبنا الحرب» أو «خسرنا الحرب» كما يكسب المرء صفقة تجارية أو يخسرها، فالناس قد عرفوا دائماً أن الحرب أيضاً صفقة تجارية.

مضاربة في البورصة.

عمل يختار المرء أن يؤديه بعد أن يدرس حالة السوق ويستشير خبراءه بشأن أسعار الأسهم ويعرف مقدماً أن جميع الظروف إلى جانبه وأن الله بالذات يقف معه أيضاً. أحياناً يخطيء المرء في الحساب ويفقد جميع مدخراته على خطوط النار وأحياناً يسعده الحظ بتحقيق انتصار خاطف على جميع الجبهات ويتأكد لديه أن الله وقف معه حقاً. ذلك يحدث لتاجر البطاطا وتاجر الحرب على حد سواء، كل ما في الأمر أن أحدهما يغامر ببضاعة عادية والآخر يغامر برؤوس مواطنيه..

حكاية الحرب بدأت بالصدفة مثل معظم الحكايات الإنسانية. فمنذ مليون سنة تقريباً لم يكن الإنسان يملك ثمة ما يقاتل من أجله. لم يكن يملك بيتاً أو مزرعة أو أبقاراً أو نساء بل كان يهيم على وجهه في الغابة ويتعقب الضباع لكي يأكل ما تتركه وراءها ويصطاد لنفسه امرأة في فصل الربيع لكي ينجب منها قرداً آخر ثم يهيم على وجهه في الغابة. لم يكن لديه ثمة ما يدافع عنه سوى فروة رأسه وكان يؤدي هذه المهمة معتمداً على ساقيه.

ثم قرر أحد ما أن يحتفظ بامرأته بدل أن يتركها تركض وحدها في الغابة ببطنها المنتفخ. امسكها من شعرها وجرها وراءه إلى أول كهف صادفه في الطريق وانطلق فوراً لكي يحضر لها ثمة ما تأكله. وعندما عاد ذلك القرد محملاً بالأرانب البرية الميتة واكتشف أن امرأته قد أنجبت له قرداً، أدرك على الفور أنه لم يعد بوسعه أن يعتمد على ساقيه في النجاة بنفسه. كان الكهف والمرأة والطفل قد ربطوه بجانبهم إلى الأبد وكان لا يستطيع أن يدافع عنهم بالجري.

تعلم الإنسان «الدفاع عن الحمى»..

تعلم أن يقف عند فوهة الكهف ويقاتل الضباع دفاعاً عن

أطفاله ومخزونه من الطعام. لم يعد بوسعه أن يلوذ بالفرار ويترك الضبع تأكل امرأته أو أطفاله أو أرانبه المجففة.. أصبح الفرار فضيحة خلقية وأصبحت الشجاعة أن يموت المرء واقفاً عند فوهة الكهف. من هنا استمدت الحرب أخلاقياتها التي نقرأ عنها في الأشعار..

بعد نصف مليون سنة كان الإنسان قد استعمر الأرض بفضل نظامه الجديد وكان قد تكاثر أكثر من أي حيوان آخر واحتل جميع الكهوف القابلة للسكن وطرد جميع الحيوانات إلى داخل الغابة وصار يعيش في مجتمع قبلي متكامل العدد ولم يعد يملك عدواً واحداً يجرؤ على مهاجمة كهفه سوى جاره الإنسان..

إذ ذاك ولدت الحرب. كان القتال ـ هذه المرة ـ يحدث بصورة مختلفة، فلم يعد الخصم مجرد ضبع أخرق يعتمد كلية على أسنانه الخرقاء أو مجرد عقرب ينوي أن يكسب معركته بقليل من السم، بل أصبح إنساناً يحمل في جمجمته عقلاً هائل التعقيد والإمكانيات وأصبحت الحرب مبارزة ضارية بين العقول وحدها.. عبر هذا الطريق وصل إنساننا المعاصر إلى قنبلته الذرية.

فقد كان بوسعه أن يحقق انتصاره على بقية الحيوانات الأخرى بالحربة والسهم. لم يكن يحتاج إلى أي سلاح معقد لكي يقتل ضبعاً أو نمراً بل كانت تكفيه سلة من السهام أو حربة من الحجر لكي يدافع عن كهفه بكفاءة ضد أقوى حيوان في الغابة.. لم يكن الإنسان في حاجة إلى القنبلة الذرية لولا أنه فوجىء ذات مرة بأن سهامه لم تعد تكفي لقتال خصمه الجديد..

حدث ذلك منذ نصف مليون سنة تقريباً. مرَّ قطيع من أنصاف القرود بمنطقة غنية بالأرانب والكهوف. وقف قائد القطيع فاغراً فمه أمام هذه الجنة. كان في حاجة ماسة إلى الطعام والمأوى وكان يحتاج إلى كهف وأرانب مجففة، لكن المشكلة بالطبع أن جميع

الكهوف كانت تخص قروداً آخرين.

خلال الليل انشغل قائد القطيع بدفتر حساباته. لم يكن يختلف في شيء عن أي تاجر معاصر يدرس أحوال البورصة لكي يعرف فرصته في المضاربة، ولم تكن عملياته الحسابية تحتاج إلى إرهاق ذهني خاص. لقد وجد كل شيء واضحاً أمامه مثل الشمس.

فأنت لكي تستولي على الكهوف تحتاج أولاً إلى أن تقتل الساكنين فيها أو على الأقل تدفعهم إلى الهرب. ولكي تحقق هذه الأمنية سوف تحتاج بالطبع إلى أن تقاتلهم لبعض الوقت. ولكي تقاتلهم سوف تحتاج إلى معظم الأفراد الأقوياء في قطيعك. ذلك يعني أن تضحي ببعض مواطنيك مقابل الكهوف والأرانب المجففة.

الصفقة رابحة في دفتر قائد القطيع.

فالإنسان يمكن تعويضه فوراً. إنك لا تحتاج إلى شيء آخر لكي تعوض خسائرك من الناس سوى أن تمارس بعض الحب مع أمهاتهم ثم تنتظر تسعة أشهر.. إذ ذاك سوف تلد لك النساء رجالاً جدداً، تلد لك رجالاً على عدد شعر رأسك لكي تنال بهم مزيداً من الكهوف. إن المرأة لا تستطيع بالطبع أن تلد كهفاً أو أرنباً مجففاً ولكن قائد القطيع ـ بقليل من الدهاء ـ سوف يحصل على هذه البضاعة بطريق المقايضة.. إن الحرفة جاهزة للممارسة بدون رخصة.

الإنسان ـ أعني رأس مال الحرب ـ يحصل عليه المرء بالمجان. يطعمه ويربيه مثل العجل، ثم يحمله معه إلى ساحة الحرب، وهي سوق عادية للبيع والشراء بطريق المنافسة، وهناك يقايضه بأرنب مجفف أو كهف أو شارع في مدينة ويدفنه في احتفال صاخب ويقيم له نصب الجندي المجهول ويدعوه شهيداً في طريقه إلى الجنة. الإنسان عملة نقدية من فئة القرش أو المليم حسب الظروف.

وقائد القطيع يقايضه في كل عصر بأي شيء يؤكل. أحياناً بكيس من الشعير.. أحياناً ببيدر البرتقال في يافا ويقيم له النصب التذكارية إذا التزم جانب الأخلاق الفاضلة ومات طبقاً للأوامر ويربط عينيه بمنديل أسود ويعدمه رمياً بالرصاص ـ بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية ـ إذا قرر العجل أن يهرب من المجزرة.

قلت لك إن قائد القطيع يقايض مواطنيه في كل عصر بأي شيء يؤكل. معذرة، هذه الحقيقة لا تنطبق على عصرنا الحالي. إننا لم نعد نقتل من أجل القوت. بل من أجل «المبادىء» فقط.. موشى دايان يقايض مواطنيه بخرافات التوراة.. الرئيس نيكسون يقايض مواطنيه ببعض الديمقراطية.. هتلر خسر مدخراته في المضاربة على أسهم الجنس الجرماني.. روديسيا سوف تخسر مدخراتها في المضاربة على العجول البيضاء.. فليس بالخبز وحده يباع الإنسان بل بالفلسفة أيضاً وبعض فصول التوراة.. إن حرفة الحرب لا تستحق أن تنقرض لمجرد أننا لم نعد نحتاج إلى الكهوف والأرانب المجففة.

فكم قرشاً يساوي الإنسان؟ ..

سأقول لك، وأرجو أن يعتريك العار ذات مرة، لقد جمعنا ثمن الكهوف الموجودة في العالم وأضفنا إليها أثمان الأرانب المجففة والخنازير وقطعان الماشية وكتب الفلسفة والتوراة وحقول القمح والمدن. جمعنا كل ما مات الإنسان من أجله وقسمناه على عدد القتلى في تاريخنا الدموي فظهر لكل ميت مبلغ قدره تسعة ملاليم! يأخذها ويقلع بها إلى الجنة بمثابة تذكار من حرفة الحرب التي اخترعها الإنسان ـ كما اخترع بقية الحرف ـ لكي يكسب بها قوت عياله ثم صار مع عياله مجرد قوت للحرب.

12 يونيو 1971

وفي الدار الآخرة

«الرجاء من المواطن ز. د. أن لا يتعرف على نفسه هنا»

أنا لا أستطيع أن أحدس كم يساوي الحاج الزروق معفياً من الضرائب ولكنني أعرف أنني رسمته ذات مرة وبعت لوحته بثمانية جنيهات نقداً أمام محطة القطار في مدينة استوكهلم. كنت أحتاج إلى ذلك المبلغ لكي أدفع إيجار الغرفة، وكانت صاحبة البيت قد أفصحت لي عن عزمها على إلقائي من النافذة في آخر يوم من الشهر. ولقد كاد الموعد الفظيع أن يحين دون أن تبدو ثمة بادرة أمل على مد العين.

ثم تذكرت الحاج الزروق على غير قصد.

كنت أستلقي إذ ذاك مكسور القلب في غرفتي المعتمة منتظراً ساعة الصفر وكنت أراقب ندف الثلج البيضاء التي بدأت تغزو الشارع مثل مليون جرذ جهنمي أبيض عندما رأيت طاقيته المضحكة تنهض فجأة من لا مكان ورأيت عينيه واصبعه الأوسط وسمعته يبصق كالعادة.

«آعلاش» قال الحاج الزروق:

ـ آعلاش قاعد امبلم هني كيف الكلب؟

وتذكرت وجهه عبر ندف الثلج البيضاء. كنت قد التقيت به أول مرة في أحد مطاعم الدرجة الثالثة في مدينة طرابلس، وكان الحاج الزروق يملك ذلك المطعم ويبيع فيه الهريسة وطبيخة الكرشة، وكنت واحداً من المواطنين الذين لجأوا إليه تحت وطأة الجوع. لكنه اختارني من دون بقية زبائنه لكي يتلطف معي بالحديث.

«آعلاش» قال الحاج الزروق إذ ذاك وهو يبصق على الأرض كالعادة:

ـ «آعلاش» ما تاكلش هريسة. هدي كويسة تقتل الحناشة في بطنك.

وأخبرته أن بطني لا يضم أية حناشة وإنني أفضل أن آكل طبيخته المقززة بدون هريسة أو بصاق ثم طلبت منه أن لا يضيع وقته بشأني، لكن المواطن الكبير القلب قد سمع أنني مقيم في بلاد النصارى وكان يريد أن يتحدث عن البنات.

«لبناويت» قال الحاج الزروق وهو يبصق على الأرض كالعادة:

ـ البلى عالبناويت .. توه شوف ..

ولم أنتظر لأشوف شيئاً بالطبع. كان العظم الذي لقيته في كرشة الحاج الزروق قد وقف في حلقي، كنت في سباق مع الوقت لكي أضع خطتي فوراً. وقد جررته أول الأمر للحديث عن إسرائيل تحت وطأة الوهم بأن الحاج سوف ينسى شبقه بطريقة ما إذا لفت نظره إلى أن غولدا مائير أيضاً بنت. ولكن ذلك لم يحدث رد الفعل المطلوب لقد اكتفى الحاج الزروق بإبداء تقززه من غولدا مائير وزعم أنها «ضبع» جهنمية وأنه يستطيع أن يطرحها على الأرض بدفعة من خنصره ثم عاد للحديث عن البنات الحقيقيات.

«البلى» قال الحاج الزروق عن بنات استوكهلم وهو يبصق على الأرض كالعادة:

ـ آعلاش الواحد ما يبيعش المطعم غدوة ويبرالهم.. قولي آعلاش؟ ..

وقلت له إنني لا أريده أن يبصق على الأرض وأن رائحة المضغة لا تطاق وإنني لن أدفع له ثمن طبيخته المقززة ثم شعرت تجاهه بالغضب وقررت أن أقتله. وقد حكيت له عن استوكهلم، وحكيت له عن البنات حتى رأيت روحه المدهوشة تطلع من فمه وودعته جثة هامدة بجانب طبيخة الكرشة. لقد مات الحاج الزروق بداء الحسد.

وقرأت نعيه في الصحف ورأيت قبره محاطاً بأكاليل الزهور والمضغة. وكنت أعتقد أن المرء في ليبيا يموت إلى الأبد رغم كل ما يشاع عن عودة معظم المواطنين لولا أن الحاج الزروق جاء إلى غرفتي ذلك المساء ورأيته رأي العين.

«آعلاش» قال شبح الحاج الزروق وهو يبصق على الأرض كالعادة.

ـ آعلاش قاعد هني كيف الكلب.. بره شوف الخيرات.. الدنيا كلها بناويت..

وتذكرت وجهه عبر ندف الثلج البيضاء.

وأضأت نور الغرفة وجلست أرسمه بالفحم، ثم تذكرت عينيه وقررت أن أرسمه بالألوان الزيتية. كانت خبرتي في استعمال هذه الألوان محدودة للغاية، وكنت أعرف أنني لن أتمكن قط من خلط لون عينيه الحقيقي، لكن شعوراً خفياً ظل يساورني بأن الحاج

الزروق مايزال في الغرفة وأنه سوف يخف لنجدتي بكل حيله السماوية.

وعند منتصف الليل ظهرت طاقيته الحمراء فوق اللوحة.

الطاقية القديمة بذاتها حاملة كل التفاصيل وكل النجمات والنقوش وحافلة أيضاً بأعقاب السجاير التي لم أتذكر أنني رسمتها على أي حال ثم ظهرت عيناه ورأيت أحداً ما يخلط لونهما الحقيقي دون تدخل من جانبي وأدركت إذ ذاك شكل لعبتي المريعة. لقد كانت روح الحاج الزروق ـ عليه رحمة الله ـ تحرك الفرشاة في يدي خلال محاولة يائسة للاقامة في استوكهلم بدل مقبرة طرابلس.

وفي البداية رفضت ذلك الطلب فوراً.

ورميت فرشاتي من النافذة وقررت أن أتقي الشر بالنوم لكن ندف الثلج وآخر يوم في الشهر أعاداني إلى الحاج الزروق طائعاً.

لقد كنت مضطراً إلى تلبية رغبته الشريرة تحت وطأة الخوف من صاحبة البيت، وكان أهالي استوكهلم مطالبين بدفع الثمن مقابل جشع تلك السيدة السليطة اللسان.

وعند الفجر كان الحاج الزروق جاهزاً للبيع.

كنت أعرف أنني لم أرسم خطاً واحداً منه، ولكنه كان يجلس كاملاً في اللوحة، وكان قد بصق مرتين على الأرض كالعادة وبدأ يتحدث عن البنات.

وهربت به إلى محطة القطار.

عرضته على الرصيف بين مئات اللوحات التي أعدها الرسامون الحقيقيون ووضعت بجانبه علبة الجير لكي لا يفضحنا أمام الأجانب ودعوت الله أن لا يشتريه أحد، لكن أهالي استوكهلم

الذين مروا بجوار محطة القطار ذلك الصباح تجمعوا كلهم للفرجة على «صورة» الحاج الزروق.

كانت طاقيته تلفت انتباههم. عيناه تلفتان انتباههم. كل شيء فيه يلفت انتباههم. وكانت البنات تتزاحم حوله مثل ألف فراشة على فتيلة الغاز.. وقد بلغت المشكلة مداها عندما احتضنته إحدى الفتيات فجأة وعرضت أن تشتريه بمائة جنيه.

«مائة وعشرون» قالت فتاة أخرى «مائة وثلاثون... أنا سأدفع أي ثمن. يا إلهي! انظروا إلى عينيه».

ونظرت إلى عيني الحاج الزروق ورأيته يغمزني لكي أبيعه للفتاة الشقراء رغم أن زوجها كان يقف بجانبها ثم قرصها في ساقها وبصق على الأرض كالعادة.

«مائة وخمسون» قال صوت امرأة في الزحام ورأيت رأس الحاج الزروق يرتفع قليلاً لكي يلقي عليها نظرة من فوق ثم عاد إلى مكانه واجماً. إنه يريدني أن أبيعه للسيدة الشقراء.

الزحام على أشده أمام محطة القطار، والناس يتزاحمون مثل قطيع من الفراشات حول فتيل للغاز. والمشكلة أن أحداً لم يكن يعرف الحاج الزروق.

عجوز واحدة عرفته..

عجوز مريعة مثل غولدا مائير وقفت فجأة أمام اللوحة وتأملتها واجمة ثم قالت بهدوء:

ـ ثمانية جنيهات. هذا الرسم الرديء لا يساوي أكثر من ثمانية جنيهات. هل تريد أن تبيع؟..

وبصق عليها الحاج الزروق بدل أن يبصق على الأرض كالعادة ودعاها «فرخة ضبع» وأطلع لها لسانه من طرف اللوح لكي يخبرها

بأنها لا تستطيع أن تحصل عليه. كان يريد السيدة الشقراء.

ولكن انظروا..

أنا لم أكن محتاجاً إلى مائة وعشرين جنيهاً أو مائة وثلاثين. لقد كنت أبحث عن ثمانية جنيهات فقط، أعني إيجار الغرفة، ثم إن العجوز كانت تعرف الحاج الزروق وقد بعته لها مقابل ثمانية جنيهات ورأيت روحه المدهوشة تطلع من فمه للمرة الثانية.

«علبة الجير» قالت السيدة:

ـ إنني أحتاج إلى علبة الجير. إنني لا أستطيع أن أدخله إلى بيتي بدون العلبة. لماذا رسمت له كيس المضغة؟..

22 أكتوبر 1970

بالعصي وراء الموتى

«من تقاليدنا الليبية العريقة»

المرء يتصور أن طريقة المواطنين الليبيين في «الصراخ» على موتاهم طوال أيام المأتم مجرد عادة رديئة لإظهار الحزن. ولكن ذلك في الواقع تصور ساذج مقام على حسن النية وخالٍ كلية من الصواب. فالصراخ على الموتى لا علاقة له بالحزن. إنه «وصفة» قديمة ـ معروفة في معظم الثقافات البدائية ـ لطرد روح الميت من البيت.

والمرء يحس بالألم تجاه هذا القول، ولكنه على أي حال حقيقة واقعة.

فالفكرة التي سادت معظم الثقافات القديمة في المنطقة كانت تعتقد أن روح الميت لا تذهب مباشرة إلى السماء بمجرد أن تفارق الجسد بل تبقى في البيت طوال الثلاثة أيام الأولى دون أن تدرك أنها قد ماتت. فإذا فشل أهل البيت في إقناعها بهذه الحقيقة فإنها تظل باقية معهم «مرتبطة بالأرض» وعاجزة كلية عن إدراك طبيعة موقفها الجديد حتى إنها تبدأ في محاولة «الاتصال» بهم طبقاً لعاداتها خلال حياتها. وعندما تكتشف أن أحداً لا يستطيع أن يراها أو يسمعها، تتجسد لهم بقوة إرادتها وتصبح شبحاً مرئياً.

أما الوصفة المتبعة لمواجهة هذا الخطر فهي تهدف بالطبع إلى «مساعدة الميت لكي يعرف أنه قد مات» ويجد طريقه إلى السماء بدل إضاعة وقته في دار الدنيا. وهي تتمثل في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

إثارة أكبر قدر ممكن من الضجة والمبالغة في إظهار الحزن لكي يعرف الميت أن شيئاً حقيقياً ومفجعاً قد حدث في البيت، وأن أهله يريدون أن يلفتوا نظره إلى موقفه الجديد.

المرحلة الثانية:

تقديم القرابين وإسالة أكبر قدر ممكن من الدماء لتمهيد الطريق أمام الميت وجذب الأرواح الأخرى لكي تتعرف عليه وتقوده معها إلى السماء.

المرحلة الثالثة:

التخلص فوراً من ثياب الميت وأمتعته الخاصة التي يمكن أن تجذبه مرة أخرى إلى البيت، والامتناع عن ذكر اسمه إلاّ بلقب «المرحوم»، وقلب المرايا لتجنب «الصور المرئية»، ووضع امرأته تحت حراسة مشددة طوال أشهر «الرباط»، ومنعها من التزين لكي لا يجد الميت طريقه إليها.

والوصفة بأسرها مقامة فوق فكرة غامضة مؤداها أن الروح «تحتاج» إلى المساعدة لكي تدرك أنها لم تعد من أهل الأرض، وأن الطريق مفتوح أمامها إلى السماء. وأنا لا أريد أن أزعم هنا أن ذلك كله «كلام فارغ» لا قيمة له، فالواقع أنه ليس بوسعي أن أتورط في إصدار هذا الحكم المعقد، ولكنني أستطيع أن أشير بثقة إلى أن طريقة المواطنين الليبيين في إرشاد موتاهم إلى السماء لا تبدو في الواقع متسمة بالذوق.

فالعزاء الليبي ـ المقام على قاعدة إثارة الضجة ـ عملية مطاردة واضحة لا تختلف في شيء عن طريقة الزنوج في مطاردة الحيوانات المفترسة التي ترتاد قراهم بقرع الطبول والصراخ. وإذا كان موتانا ليسوا حيوانات مفترسة فإنهم بالتأكيد لا يحتاجون إلى «صندوق العزاء» الذي نقرعه لهم بالعصي ثلاثة أيام متوالية مشحونة بالصراخ والبكاء.

إننا لا نستطيع أن نزعم أن «صندوق العزاء» وسيلة لإظهار الحزن، لأنه في الواقع ليس كذلك، ولأن المرء لا يعبر عن حزنه بدق صندوق قديم بالعصي. إنه مجرد أداة لإثارة «الضجة» التي نعتقد أننا نحتاج إليها لكي نلفت نظر الميت إلى موته. وإذا كان ثمة عادة رديئة تستطيع أن تجرح مشاعر الحزن الحقيقية فهي بالتأكيد هذه العادة.

إن الميت ـ إذا كان يحتاج حقاً إلى مساعدتنا كما تزعم تقاليدنا القديمة بالإضافة إلى فلسفة بعض محضري الأرواح ـ فلا بد أن هذه المساعدة تختلف كلية عن الطقوس المشينة التي يضمها «المأتم الليبي».

فمذبحة النعاج التي تحدث طوال أيام المأتم حيلة وثنية معروفة باسم «القربان» في جميع ثقافات العالم، وليس ثمة دليل واحد يثبت أنها وسيلة لمساعدة الميت أو جذب بقية الأرواح الأخرى. ولكن ثمة أدلة كثيرة تشير بوضوح إلى أن هذه العادة الرديئة من صنع الدجالين الوثنيين الذين تعلموا بالممارسة أن يعيشوا على استغلال مشاعر الدين في كسب قوتهم اليومي، إلى جانب رغبة المواطن في إظهار قدرته على «فعل الخير».

وأنا لا أريد أن أتجاهل هنا الفكرة القائلة بأن ذبح النعاج في المأتم الليبي يحدث من باب الرغبة في «الصدقة»، فالواقع أن ذلك

الضبط هو قناع الدجال الذي يختفي وراءه في معظم العصور. فالصدقة لا علاقة لها بالموتى. إنها واجب الحي من أجل نفسه وليس من أجل موتاه، ثم إن النعاج البائسة لا تذهب أيام المأتم إلى الله بل تقدم مع صحون الأرز إلى بقية عجائز الزقاق اللائي يحضرن للمساعدة في قرع الصندوق. وإذا كان ثمة من يريد أن يطلق اسم «الصدقة» على هذه اللعبة المزرية، فلا بد أنه مطالب بأن يبحث لنا عن اسم آخر للصدقة الحقيقية.

أما «صندوق العزاء» فإنه في الواقع أسوأ ما لدينا.

لأن الزعم بأن الوقوف وراءه ثلاثة أيام كاملة وقرعه بالعصي من كل جانب دليل واضح على أن مشاعر الحزن زعم غير حقيقي يهدف إلى الخلط بين الإحساس الإنساني النبيل المتسم بالعمق والأصالة وبين حلول الثقافات المتأخرة لمواجهة عالم الموت الغامض.

فالمخلوق شبه الوثني الذي كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يقنع موتاه بأنهم ماتوا حقاً إلاّ إذا قرع لهم صندوقه القديم ثلاثة أيام متوالية، لا يبدو في الواقع أنه كان قادراً على إقناع أحد. فالعالم ليس غابة لمطاردة الأرواح والأرانب البرية لإثارة الضجة. إن المرء لا يستطيع أن يقبل هذه العادة داخل مجتمعه دون أن يغالبه الشعور بأن مواطنيه مستعدون في أية لحظة لالتقاط عصيهم والجري وراء موتاهم البؤساء من باب الرغبة في «طردهم إلى الجنة».

إن الأمر ليس بسيطاً إلى هذا الحد.

وإذا كانت هذه العادة المشينة قد زرعت نفسها في ترابنا، وأصبحت جزءاً من تقاليدنا، حتى أصبح من الصعب أن نكتشف أبعادها من الخارج فإن ذلك لا يجوز أن يعوقنا عن محاولة الرؤية الأمينة والإصرار على تعرية جذور «المأتم الليبي» الخالية من النبالة.

إن الصراخ على الموتى ليس دليل الحزن، بل هو «وصفة» وثنية لمطادرة «أحبابنا» بالعصي والضجيج وصلت إلى بلادنا عبر جسور ثقافية معوجة، وساعدت ظروف حياتنا على تنميتها باطراد وزيادة حدة «الضجيج» لكي يصل صراخنا إلى مسامع كل الجيران حتى إذا كانوا يعيشون على بعد بضعة أميال من بيت الفقيد.

وأنا أعرف أن المواطن الليبي المعاصر لم تخطر بباله هذه الحقيقة قط، وأعرف أيضاً أن تمسكنا بطقوس المأتم الليبي عمل ناجم عن اعتقادنا بأنها مجرد عادة محلية لإظهار الحزن، فإذا أتيحت لنا فرصة التوعية الحقيقية، وتحددت أمامنا أبعاد هذه العادة شبه الوثنية، فإن شعبنا المسلم سيبدأ في البحث عن طريقة للخروج إلى منطقة الأمان.

إن المرء لا يطارد موتاه بالعصي راضياً.

ولكنه يفعل ذلك أحياناً دون أن يدري، ويدق لهم الصندوق ثلاثة أيام ويطلق الصرخات في إثرهم كما يفعل سكان القرى لإبعاد الثعالب عن المنطقة ثم يزعم في الجريدة المحلية «أنهم انتقلوا إلى رحمة الله» وتمت مطاردتهم بأمان إلى جنة الخلد.

إن محنتنا الفكرية قد خدعتنا في كل شيء حتى في طريقنا للتعامل مع موتانا. وليس ثمة شك أن قطعان الفقهاء الذين عاشوا يبيعون لنا العلم مقابل خمس بيضات في الأسبوع لم يكن بوسعهم إنقاذنا من هذه المحنة بمقدار عقلة اصبع. ففاقد الشيء لا يعطيه ـ كما قيل منذ سالف الأمد ـ وما دام الدين حرفة لاكتساب العيش، فإن كل باب تدخل منه صحون الأرز وجثث النعاج سيظل إلى الأبد مفتوحاً على الجنة.

والمأتم الليبي أكبر الأبواب.

فهو في الدرجة الأولى بداية الطريق إلى عالم الموت الغامض الذي يستطيع الدجال أن يستغله كما يشاء دون أن يتعرض لفضح حيله بالأدلة القاطعة، وهو أيضاً ميدان مفتوح لاستغلال مشاعر الحزن البسيطة لدى المواطن الأمي وابتزاز نقوده على مسمع من السلطة والقانون. وإذا كان هذا العمل المزري يستطيع أن يعود بالفائدة على بعض الفقهاء والدجالين، فإنه يتسبب في إلحاق الضرر بكثير من الفضائل الحقيقية في مجتمعنا بأسره.

إنه يجعل موتنا أيضاً ـ بالإضافة إلى حياتنا ـ أسطورة شبه وثنية.

ويصيب مشاعرنا الإنسانية بالشلل لكي يفتح أمامها طريق الإثارة الخارجية ويضع فوق حزننا قناعاً يدعو إلى الضحك، ويتركنا نذهب إلى لقاء الله مطاردين بالعصي وصراخ العجائز كما يخرج الثعلب من قرية عامرة بكلاب الحراسة.

فماذا يمكن أن يقال؟

نحن شعب مسلم، ونحن نؤمن بالروح، ونؤمن بأن موتانا يذهبون حقاً إلى لقاء الله، فهل تبدو طقوس مأتمنا الليبي منسجمة بأي حال مع هذا الإيمان؟ أم أن عقمنا الفكري ما يزال داء مستعصياً حتى على الكتب السماوية؟

سؤال للبيع مقابل صحن من الأرز.

2 فبراير 1970

كيد النساء

«أرقام في حياة المواطنة ف.م».

.. أنت لم تسمع قط عن شيء يدعى «كيد الرجال»، أعني على الأقل ليس في ليبيا. فاللغة الشائعة هنا لا تميل إلى هذا الاصطلاح لأنه ـ فيما يبدو ـ غير مرغوب فيه بين معظم الناس ولأن معظم الناس بالطبع من صنف الرجال. أنا أيضاً مثلك.

سمعت كثيراً عن «كيد النساء» قرأت عنه في كتب الرجال، تابعته ذات مرة في حياة المواطنة «ف.م» ووجدت أشياء كثيرة تشبه الكيد والنساء، هل تحب أن تقرأ عريضة الاتهام؟ أعني من باب الشماتة على الأقل.

أولاً، ولدت المواطنة «ف.م.» بدون إذن وبدون أدنى رغبة من أحد في العالم بأسره، لقد عاد والدها من الجامع ذات ليلة بعد صلاة العشاء والتراويح ووجد القابلة تنتظره في السقيفة ثم سمعها تقول له بالحرف الواحد «مبروك الشويشينة».

شنو؟ قال المواطن الذي لا يعرف لغة النساء.

«الشويشينة» قالت القابلة (من الشوشانة يعني الخادم يا جناب

المواطن وقد أوردها صاحب القاموس عن ملك البربر).. أين البشارة؟

بعدين، قال المواطن، وكان يعني في الواقع «بعد الزرع» ثم نام في السقيفة مكسور القلب. هكذا جاءت الخادم بدون طلب من صاحب البيت.

وقبل نهاية العام الأول كانت تجري في الشارع مثل زريعة إبليس، وقبل نهاية العام الثاني كانت تحمل المكنسة وتغسل الصحون وتعد قهوة الصباح. وقبل العام الرابع كانت تحمل أخاها الصغير فوق ظهرها وتتسكع به في الشارع طول النهار. وقبل العام التاسع كسرت قلب شيخ المحلة وجعلته يجر أعيان قبيلته وراءه في إحدى الليالي الممطرة ويحضر لشرائها بمائة جنيه وأربع بدالي ونعجتين.

«ثلاث نعاج» قال والد المتهمة تحت وطأة الجشّع.

«ثلاث نعاج» قال شيخ المحلة تحت وطأة الحب.

«وخلخال» قال والد المتهمة.

«وخلخال» قال شيخ المحلة.

كان مسلوب الإرادة في تلك الليلة الممطرة، وكان كيد النساء قد كسر قلبه قطعتين. هكذا وصلت زريعة إبليس إلى أطهر بيت في المنطقة.

ثانياً، عاشت المتهمة في بيت شيخ المحلة ثلاث سنوات غسلت خلالها طناً واحداً فقط من ملابسه وطبخت له ١٤٤ وجبة أرز وتسعاً وثمانين وجبة كسكسو وتسعين صينية شربة في رمضان الله الكريم بالإضافة إلى بعض فناجين القهوة ثم توقفت فجأة ـ وبدون سابق إنذار ـ عن كسر قلبه. أنا أعرف أنها فعلت ذلك متعمدة.

«عظم وجلد» قال شيخ المحلة عند نهاية العام الثالث فيما كان يراقب امرأته وهي تتكوم بجانبه مثل خرقة قديمة «عظم وجلد بمائة جنيه. هذا أكثر شطارة من بيع الطين بثمن العسل» وكان شيخ المحلة قد اكتشف فجأة أنه تزوج جحا دون أن يدري.

في اليوم التالي جاءت حقيبة العظم والجلد وطلبت نصف جنيه مرة واحدة.

«ليش؟» قال شيخ المحلة.

«هكي» قال جحا المتنكر في زي حقيبة العظم والجلد، كانت قد سمعت شيخ المحلة يتحدث في نومه، وكانت قد قررت أن تركض إلى ضريح الولي المجاور وتشتري منه قليلاً من الشحم. لكن المؤامرة قتلت في المهد وعادت المواطنة «ف.م.» إلى بيت أهلها مطرودة من الجنة مقابل نصف جنيه.

ثالثاً، تزوجها الجزار اشترى الرجل الخبير نعجة في البحر وعندما رآها في ليلة الدخلة عرف صفقته الخاسرة دون أن يسلخها وجلس يضرب حسابه مكسور القلب، كانت أسعار الشعير ترتفع باطراد وكان عليه أن يعطيها كثيراً من الشعير.

بقيت المواطنة «ف.م.» عشر سنوات مربوطة في السقيفة.

استهلكت خلالها أربعة أطنان من خبز الشعير، وطناً من القرعة وأربعة آلاف كرشة وألف دوارة وسبعمائة رأس من رؤوس النعاج التي لم يشترها زبائن زوجها وألف كيلو من الفاصوليا لأن زوجها كان يحب طبيخة الفاصوليا بالكرعين.

مقزز كيد النساء.

وطبخت خلالها ألف وجبة كسكسو من دقيق الشعير وعشرين وجبة أرز وسبعمائة مرة طبيخة بامية وألف عشاء من الحرويسة في

ليالي الشتاء وعجنت خلالها ثلاثين ألفاً من أرغفة خبز الشعير.

ثلاثون ألفاً على عدد شعر رأسها من أرغفة خبز الشعير.

وأنجبت أيضاً سبعة ذكور واحداً بعد الآخر أضاءوا البيت والشارع مثل سبعة قناديل وكسروا زجاج النافذة في بيت الجيران وبطحوا الجار نفسه على الأرض ذات مرة وكسروا عظامه بالنطاح ثم سرحوا في بقية المنطقة ومدوا نفوذهم بسرعة حتى اضطر الجزار إلى أن يغلق محله ويتفرغ لإدارة شؤون الأمبراطورية الجديدة من ناصية الزقاق، إذ ذاك أنجبت بنتاً، أنا أعرف أنها فعلت ذلك متعمدة.

«ليش؟» قال الجزار.

«بيش تعاوني» قالت المواطنة «ف.م.» متظاهرة بأنها تحتاج إلى المعونة في مطبخ الأمبراطورية.

«يعني بالعاني؟» قال الجزار متناسياً أن السيف قد سبق العذل وأن كيد النساء لا يرد على أي حال. «ردي الفرخة» قال الجزار.

من باب العناد لم تشأ المواطنة «ف.م.» أن ترد ابنتها إلى السماء. ومن باب العناد أيضاً ذهب الجزار إلى تونس وعاد حاملاً امرأة طازجة معه.

رابعاً، عاشت المتهمة في بيت ضرتها خمس سنوات.

تشاجرت معها خلال هذه المدة ثمانياً وخمسين مرة، كسرت لها ثلاثة أسنان بيد المسحان، قطعت عقدها تسع مرات، دعتها «تونسية شحاتة» ثلاث آلاف مرة أنفقت أربعة جنيهات ونصفاً في تحريض الأولياء ضدها كتبت لها عشرة أحجبة عند فقي المنطقة لكي تصاب بالعقم، زعمت أن الكسكسو الذي تعده ضرتها لا

تأكله حتى الكلاب ألف مرة، وفي المرة الواحدة بعد الألف طلقها الجزار.

خامساً، تزوجها الخضار اشترى الرجل الخبير بطيخة بيضاء، وعندما رآها في ليلة الدخلة.. الخ.. الخ.. الخ. أنت تعرف الآن بقية الحكاية وتعرف حصيلة عمر كامل من كيد النساء.

31 أكتوبر 1970

لتسقط الحاجة «امدلله»

الغرفة رقم 13 في مستشفى العظام بمدينة لندن تضم سيدة ليبية.. أعني عجوزاً اسمها الحاجة «امدلله» كانت قد أصيبت بالروماتزم في عصر الطليان وطفقت تعالجه بالأعشاب البرية وبعض السحر المحلي حتى سحق المرض الفظيع عمودها الفقري واضطرها إلى طلب المعونة من مستشفى العظام بمدينة لندن. وقد كان في وداع الحاجة «امدلله» على أرض المطار معظم سكان المحلة. وكان شيخ الجامع المجاور قد أوصاها في الليلة السابقة بأن تحذر من أكل لحم الخنزير، وقال لها بالحرف الواحد «إن المسلم لا تزوره الملائكة أربعين يوماً كاملاً إذا وقعت عيناه مجرد صدفة على ذلك المخلوق الكريه» ثم قال لها أيضاً إن النصارى في لندن ـ طبقاً للمعلومات الواردة بشأنهم في كتب الرحالة القدماء ـ يحاولون دائماً أن يغشوا المسلمين من باب الحسد ويضعون قليلاً من لحم الخنزير في صحونهم. وقد دمعت عينا الحاجة «امدلله» إذ ذاك من الخوف، وقضت معظم الليل في طلب المغفرة وبصقت على الأرض في إحدى المرات وأعلنت لنفسها بأن الذهاب إلى أرض النصارى مجرد

خارقة لا تطاق، ولكن الروماتزم الفظيع الذي يسحق ظهرها اضطرها على أي حال إلى أن تلف عباءتها حولها في الصباح وتنطلق في ركب من سكان المحلة إلى المطار.

وفي مطار لندن ارتكبت الحاجة «امدلله» أول ذنب حقيقي في حياتها واضطرت أن تعري وجهها أمام الرجل النصراني الذي يفحص جوازات السفر وراء البوابة الرئيسية. وقد بذل مرافقوها جهداً خارقاً لإقناع الشرطي بالتخلي عن شكوكه وأقسموا له أكثر من مرة بأن الشيء الذي يتحرك تحت العباءة هو الحاجة «امدلله» صاحبة جواز السفر، ولكن الشرطي رفض أن يصدق تلك الأسطورة واضطرت الحاجة «امدلله» بالطبع إلى أن تزيح طرف العباءة قليلاً وتترك النصراني ينظر إلى وجهها. وقد قال الشرطي بعد ذلك إن وجه تلك السيدة لم يكن يشبه شيئاً في العالم سوى الصورة الملصقة على جواز سفرها ولكن ذلك على أي حال لا يحرمها من الحق في دخول لندن.

ودخلت الحاجة «امدلله» في اليوم التالي مباشرة مستشفى العظام.

وتورطت في معركة مزرية مع الموظف المختص بشأن تاريخ ميلادها فقد رفض الموظف أن يصدق أنها مولودة حقاً في «عام الكبة» وأصر على أن يعرف تاريخ ميلادها بالضبط فيما عمل مرافقوها طوال الوقت في البحث عن موقع عام الكبة من تاريخ العالم، وأعلنوا في نهاية المطاف أنه يقع في فترة ما بين الحرب العالمية الأولى وبين حرب الحبشة. وكان الموظف على وشك أن يقبل الخدعة المزرية لولا أن الحاجة «امدلله» عجزت أيضاً عن معرفة اسم الشهر الذي ولدت فيه وأصرت على القول بأنه شهر يدعى «أمنا عيشة»، مما دفع الموظف إلى أن يطردها من مكتبه مكتفياً بأن

يقيد في سجله: إن الحاجة «امدلله» حقيقة واقعة ولكننا لا نعرف متى ولدت.

ثم حملوها إلى غرفتها.

وسمعوها تقول لهم أكثر من مرة بلهجة ليبية واضحة أنها لا تحب أن تأكل لحم الخنزير ولا تحب أن تراه أو تشمه أو تقع عيناها على مجرد الإناء الذي يطبخ فيه لحم ذلك الحيوان الكريه. وكان ذلك يعني بالضبط أن إدارة المستشفى لا تستطيع أن تضع مريضة أخرى مع الحاجة «امدلله» إلاّ إذا أسعدهم الحظ بالحصول على حاجة ليبية جديدة، ولكن أحداً لم يلاحظ هذه الحقيقة البسيطة حتى وقعت الكارثة ذات يوم وسمعت ممرضات المستشفى صوت المريضة الايرلندية العجوز يرتفع بوهن في الممر المقابل مطالبة الحاجة «امدلله» بأن تكف عن المزاح وتفتح لها الباب.

«أنا لا أمزح معك» قالت الحاجة «امدلله» من الداخل، أنا لا أمزح مع نصرانية مزرية مثلك. إنك لن تدخلي هذه الغرفة قط. امشي.. ابحثي عن سرير في غرفة أخرى.. امشي يا آكلة لحوم الخنازير».

وكان ذلك يعني أن العجوز الايرلندية السيئة الحظ قد تورطت في الحديث مع الحاجة «امدلله» بطريقة ما وأخبرتها بأنها تحصل على وجبة من لحم الخنزير داخل الغرفة، وأن الحاجة «امدلله» ـ في غمرة غضبها ـ استغلت فرصة ذهابها إلى الحمام وأغلقت الباب وراءها بالقفل الداخلي مزمعة أن تتركها تموت من البرد في الممر.

وقد تجمعت الممرضات أمام الغرفة وقام أحد ما باستدعاء مدير المستشفى أيضاً وبذل الجميع جهداً صادقاً بكل اللغات المعروفة لديهم لكي يقنعوا الحاجة «امدلله» بأن تترك جارتها تنام في سريرها

ليلة واحدة فقط. وركع مدير المستشفى نفسه على ركبتيه وتوسل إليها بأن تفتح ذلك الباب قبل أن تتجمد العجوز المريضة في الممر. ولكن الحاجة «امدلله» بقيت صامدة إلى النهاية ولم يكن ثمة مفر من أن تحل إدارة المستشفى تلك المشكلة الطارئة بالبحث عن غرفة أخرى في الدور السفلي.

ومنذ ذلك اليوم تعلمت الممرضات في المستشفى أن السيدة الليبية التي تقيم في الغرفة رقم 13 تستطيع أن تفعل أي شيء في العالم إذا غامرن بإثارة شكوكها تجاه.الطعام الذي يقدم لها، وقد بذلن جهداً هائلاً لإقناعها بأن أحداً لا ينوي أن يغشها بوضع لحم الخنزير في طبقها، وأنه ليس ثمة نصراني واحد في لندن بأسرها يريد أن تذهب الحاجة «امدلله» إلى الجحيم. ولكن العجوز المليئة بالشكوك حلمت ذات ليلة بخنزير رمادي اللون يدخل إلى غرفتها ويدس نفسه تحت السرير، وعرفت في الصباح أن الملائكة لن تزورها لمدة أربعين يوماً عقاباً لها على ذلك الحلم المزري، وقررت مرة أخرى ـ في غمرة غضبها ـ أن تقفل الباب من الداخل.

وتجمعت الممرضات أمام الغرفة وقام أحد ما باستدعاء مدير المستشفى وبذل الجميع جهداً صادقاً بكل اللغات المعروفة لديهم لكي يقنعوا الحاجة «امدلله» بأن تفتح الباب وتترك الممرضة تقدم لها عشاءها ولكن الحاجة «امدلله» ظلت صامدة إلى النهاية وقد رفضت أن تفتح الباب ورفضت أن تترك صحن الطعام يدخل إلى غرفتها. واكتفت بإعلان إضرابها عن الأكل قائلة لمدير المستشفى الذي ركع على ركبتيه لكي يتحدث إليها من ثقب المفتاح: «امشي. أنا لن أفتح لك هذا الباب حتى إذا وقفت على رأسك.. إنني لن آكل خنازيركم الجهنمية مهما حدث. وإذا كنت لا تريدني أن أموت من الجوع فدعني أطبخ طعامي هنا بنفسي».

واستشاط مدير المستشفى غضباً بالطبع، وقرر أن يعاقب الحاجة «امدلله» على إبداء تلك الرغبة المشينة بتجاهلها يومين كاملين، فمستشفى العظام بمدينة لندن لا يسمح لأحد بأن يطبخ طعامه في غرفته. إن مجرد إعلان هذه الرغبة عمل يدعو إلى العقاب وقد قرر المدير أن يعاقب الحاجة «امدلله» ويتركها بدون طعام يومين كاملين معلناً لزملائه المدهوشين أن ذلك بالضبط سوف يدعوها إلى أن تركع على ركبتيها وتهجر فكرة الطبخ في الغرفة. ولكن المدير كان مخطئاً كلية هذه المرة، وكانت الحاجة أمدلله قادرة على أن تموت من الجوع في الغرفة رقم 13 دون أن يخطر ببالها أن تركع على ركبتيها أمام أي نصراني في لندن بأسرها. وقد اتضحت هذه الحقيقة بصورة أفضل عندما مرَّ اليوم الثالث لبدء الاضراب دون أن تبدي الحاجة «امدلله» أية رغبة في قبول المفاوضات حتى لمجرد فتح الباب.

وخسر المدير حربه الصغيرة في ثلاثة أيام. وأصدر قراراً لأول مرة في تاريخ مستشفى العظام بمدينة لندن لشراء حلة وموقد وبراد للشاي وحملها بنفسه إلى سرير الحاجة «امدلله» وركع على ركبتيه وتوسل إليها أن تتركه على الأقل يساعدها في تحديد نوع الطعام الذي يحتاج إليه علاجها. ولكن الحاجة «امدلله» كانت تريد أن تعد طعامها بنفسها وكانت تعرف ما تحتاجه بالضبط. وقد سارعت إلى طبخ أول وجبة معلنة لمدير المستشفى أنه يستطيع أن يطمئن من ناحية غذائها لأنها تعرف ذلك أكثر منه، ولأنها عملت في إطعام أسرتها خمسين عاماً متوالية دون أن يموت أحد من أفرادها نتيجة سوء التغذية.

وكانت الحاجة «امدلله» تجيد الطبخ حقاً. وكانت رائحة الرز الجاري الذي تعده في الغرفة رقم 13 تصل أحياناً إلى منطقة

بيكاديلي على بعد بضعة أميال، ولكن الرائحة وحدها ـ فيما يبدو ـ لم تكن كافية لإقناع أطباء المستشفى الذين سارْعوا إلى عقد اجتماع عاجل أعلنوا خلاله بذعر واضح أن الحاجة «امدلله» تعاني من سوء التغذية وأنها قد تموت خلال الشهرين القادمين إذا لم يتمكن أحد من إقناعها بالتخلي عن مخاوفها تجاه طعام المستشفى.. فالوجبات التي تعدها في غرفتها لا تمدها بالقوة المطلوبة لمقاومة الروماتزم ومن المتوقع أن يصل المرض الفظيع إلى غايته قبل أن تعرف الحاجة «امدلله» أن الرز الجاري وحده لا يكفي.

ثم انطلق الأطباء في صف واحد إلى الغرفة رقم 13، وأعلنوا للعجوز الليبية التي أخفت وجهها منهم تحت الوسادة أن السيل قد بلغ الزبى، وأنهم مضطرون للتدخل في إعداد وجبات طعامها لأنها فيما يبدو لا تستطيع أن تفعل ذلك بنفسها، ثم أعلنوا لها أنها مصابة بسوء التغذية وأنهم لا بد أن يقوموا بفحصها مرة أخرى.

ولكن الحاجة «امدلله» لم تقل لهم شيئاً. لقد ظلت مخفية وجهها تحت الوسادة وظلت تلتزم الصمت حتى أنهى الأطباء خطبتهم وخرجوا من الغرفة ثم رفعت رأسها ببطء واتجهت نحو الباب وأقفلته من الداخل. ولم تفتحه بعد ذلك قط حتى جاء مدير المستشفى وركع على ركبتيه وسألها عبر ثقب المفتاح عما دعاها إلى الغضب.

«امشي».. قالت الحاجة «امدلله» من الداخل «أنا لست غاضبة من أحد، ولكنني لا أريد أن يقوم الأطباء بفحصي.

لقد جاءوا إلى هنا وقالوا لي ذلك بأنفسهم. اسمع.. إنني لن أسمح لأحد بأن يضع إصبعه عليّ»..

وسألها مدير المستشفى:

لماذا يا سيدتي؟

وأعلنت الحاجة «امدلله» من الداخل أن ذلك الإجراء يتم لأسباب خاصة وأنها لا تنوي أن تذكرها لأحد. ولكنها أيضاً لا تنوي أن تترك الأطباء يقومون بفحصها.. وقد استغرق البحث عن تلك الأسباب أسبوعاً كاملاً من معظم الجهات الخبيرة في شؤون عجائز الشرق الأوسط، وبذل الخبراء جهداً هائلاً لمعرفة الدوافع الكامنة وراء قرار الحاجة «امدلله» الغامض، ولكن أحداً لم يتذكر قط أنها ببساطة تفضل أن تموت بالروماتزم على أن تترك رجلاً غريباً ونصرانياً أيضاً يضع عليها اصبعه.

وقد كادت الحاجة «امدلله» أن تموت حقاً قبل أن يهب أحد لنجدتها لولا أن الروماتزم الفظيع هاجمها بقسوة مفرطة ذات ليلة وتركها تتلوى فوق السرير حتى الصباح ثم اضطرها في اليوم التالي إلى طلب النجدة من أطباء المستشفى.

وقد بكت الحاجة «امدلله» في غرفة الفحوص من الغيظ وقالت لنفسها إن الروماتزم الفظيع يستطيع أحياناً أن يدفع المرء إلى ارتكاب بعض الفضائح دون أن يدري.. ثم تذكرت سكان المحلة وقفز قلبها من الرعب عندما خطر لها أن الخبر قد يصل إليهم بطريقة ما..

ماذا سيقول سكان المحلة؟ ..

أجل .. ماذا؟ لتسقط الحاجة «امدلله».

31 يوليو 1969

شارع الصحافة

إذا حملتك قدماك إلى شارع قديم مليء بالشحاذين والحواة وجرادل القمامة التي يلقيها السكان من البلكونة على رؤوس المارة فلا تدع الدهشة تعقد لسانك.. إنك تقف ـ دون أن تدري بالطبع ـ في.. شارع الصحافة.

وأنت هنا، في هذا الشارع المدهش، مجرد بقرة بلا ذيل..

إنك لا تستطيع أن تعتمد على حماية الشرطة، لأن القانون نفسه يقف عادة إلى جانب شارع الصحافة، ولا تستطيع أيضاً أن تعتمد على قبضتك أو تفعل شيئاً في العالم ضد حزم الجرائد التي تسقط فوق رأسك من كل البلكونات. إن كل ما في وسعك أن تفعله هو أن تواصل المشي في شارع الصحافة الممتد من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر سابقاً، وتقرأ الصحف العربية الصادرة في المنطقة وتأكل خطباً حتى تصل الثقافة إلى أذنيك.

ولا بد أن يصلك أول جردل بقلم رئيس التحرير نفسه.

ولا بد أن يثبت لك ذلك الرجل الطيب القلب أنه قد أنفق ليلة البارحة ساهراً بجانب آلة الطباعة لكي يعد لك افتتاحية الصباح ويجعل صباحك لبناً مخلوطاً بقليل من الثقافة. وأنت معرض

بالطبع إلى أن تموت من الإعجاب بمهارة السيد رئيس التحرير في خلط اللبن، ولكن لا تدع ذلك يشغلك عن مهارته في إعداد بقية الوجبة.

إنه سيحدثك عن أي شيء.

ذلك يعني عن أي شيء حقاً من إبادة إسرائيل إلى إبادة دودة القطن وسوف يفعل ذلك دائماً في حدود المصلحة العامة ويضربه بالملعقة مع إضافة قليل من الأشعار والملح ويخلطه بخبطة نهائية تخص أي مخلوق يضعه سوء الحظ في طريق السيد رئيس التحرير.. وعندما تنضج الوجبة في نهاية المطاف يرش فوقها بعض النصائح الموجهة إلى الشحاذين في الخارج ويدلقها فوق رؤوسهم من البلكونة.

ذلك يحدث في البلاد العربية لخدمة المصلحة العامة.

وحكاية مكاسب الشعب أيضاً وتحقيق وحدة الأمة وبعض الخدمات الجانبية الأخرى.. ورغم أن الافتتاحية تستطيع أحياناً أن تتناول موضوعاً معقداً لا علاقة له بالشعب التائه تحت البلكونة مثل الهبوط على سطح القمر، فإن السيد رئيس التحرير يمكنه دائماً أن يجد حيلة ما لربط القمر بالمصلحة العامة. إنه ـ عادة ـ يبدأ تلك المغامرة الشعرية بطلب فنجان من القهوة بدون سكر، ثم يشعل لفافة تبغ ويشتم الأميركيين الذين وضعوه في هذا المأزق ويكتب الافتتاحيات الفظيعة رغم أنفها.. وعندما ينظر من البلكونة ويكتشف فجأة أن الشعب المشار إليه ما يزال يعتقد أن الأرض تدور على قرن ثور، يكتب له في الافتتاحية أن المستر أرمسترونغ قد رفع عينيه بدون تعمد فوق سطح القمر ورأى الثور معلقاً في الهواء..

ذلك يحدث في الصحف العربية لأن رؤساء التحرير ـ في

الغالب ـ يفرطون في شرب القهوة بدون سكر، ولأن أحداً منهم لا يهمه أن يرفع الشيطان نفسه رأسه الجهنمي لكي يرى الثور معلقاً في الهواء، ما دام ذلك يساعده على ربط القمر بالمصلحة العامة. فالمهم أن يحتفظ الشعب بثوره، ويحتفظ السيد رئيس التحرير بوظيفته، ويعيش كل امرىء هادىء البال بغض النظر عن رائحة الكون المتوقعة إذا كان حقاً مجرد اسطبل للثيران.

إن الكون لا يخص السيد رئيس التحرير. ولا يخصه الشعب التائه تحت البلكونة أو الثيران التي تتسكع بين النجوم أو أضرحة الأولياء وشعوذة الفقي المحلي وتجارة الفكر الحافلة بالغش وعرض النفاق السياسي في نوافذ السوق الرئيسي والقهر العقلي الذي يحصد المنطقة مثل وباء الطاعون.

الافتتاحية فقط تخص السيد رئيس التحرير لكي يعرض فيها عواطفه النبيلة، ويدق فيها طبلته للسياسيين ويهتف وراءهم بإبادة إسرائيل مرة وبالحل السلمي مرة وبالوقوف على الرأس وقت الحاجة والتمسك بأهداب الفضيلة وتنقية مياه البحر وإنشاء محطة للأتوبيس وإقامة ملجأ للشحاذين السعداء.

ذلك لا بد أن يقوله السيد رئيس التحرير كل يوم.

ولا بد أن يجعل الافتتاحية تبدو مملّة إلى حد لا يطاق، ويتورط في ارتكاب بعض الحماقات التي تتسبب أحياناً في إصابة المرء بالدوار لكي يثبت لمواطنيه أن الصحف العربية لا تريد شيئاً في العالم سوى أن تراهم يموتون من السعادة.

أما أن تراهم يعيشون مثل بقية البشر؟

أما أن تقف للدفاع عن حقهم في الحياة مثل غيرهم بالضبط؟

وتعمل على حمايتهم من الحواة السياسيين وباعة الأفكار والأحذية القديمة والمتشردين الشيوعيين والفقهاء الميتين بالعقم وأضرحة الأولياء وعمليات التقديس والقهر الفكري؟ أما أن يضع السيد رئيس التحرير رأسه في هذه المقصلة، فذلك في الواقع مجرد إغراء نجس من جانب الشيطان بالذات.

فالمواجهة الفكرية لا يستطيع المرء أن يدلقها من البلكون.

إنه لا بد أن يحملها بين يديه بحذر متناهٍ، ولا بد أن يمنحها كل وقته، ويضع كل ما لديه جانباً لكي يتفرغ لتحقيق أبعادها المعقدة. والمرء لا يأتي إلى شارع الصحافة لكي يفعل هذه الخارقة، ويتورط في محاربة طواحين الهواء ويتلقى الشتائم على الأرصفة ويفقد راتبه أيضاً. إنه يأتي ـ عادة لأنه يعتقد أن أحداً ما لا بد أن يشيد بمشروع الجمعيات التعاونية أو مشروع تنقية مياه البحر أو أية كارثة أخرى وأنه بالذات يحسن القيام بهذا العمل نظراً لاستعداده الفطري في كتابة مواضيع الإنشاء.

هكذا يصل السيد رئيس التحرير في معظم البلاد العربية إلى مكتبه.

إنه لا يحتاج إلى أن يضع رأسه داخل أية مقصلة، ولا يحتاج إلى إثبات تفوقه الفكري أو قدرته على تحديد الاتجاه أو الرؤية الواضحة أو العمل الجاد الذي يمكن الوثوق بنتائجه. إنه فقط يحمل استعداده الفطري في كتابة الإنشاء فوق كتفه ويذهب إلى مكتبه ويقود الأمة العربية إلى النصر والسعادة معتمداً على الصدفة وحدها.

وفي العادة تسقط الأمة العربية في حفرة ما، ويحدث أي شيء لتغيير وجهة القافلة ويستدير السيد رئيس التحرير وينطلق مرة

أخرى في الاتجاه الجديد مزوداً بالطبع باستعداده الفطري في كتابة الإنشاء.

إنه يذهب في كل اتجاه مزوداً دائماً باستعداده الفطري في كتابة الإنشاء.

ويلبس لكل حالة لبوسها، ويتشقلب على الحبل بالمجان رغم أن أحداً من المواطنين أو من أصحاب الحكومة الجديدة لا يملك من الوقت ما يضيعه في مشاهدته.. ولكن السيد رئيس التحرير لا بد أن يقوم بواجبه على أي حال، ولا بد أن يدلق جردله الصباحي على رؤوس المارة.

وفيما تبدو صحف العالم بمثابة منصة يومية لمنجزات الفكر [illegible] من الرجال الشجعان والأوفياء وفيما تنطلق الشعوب العظيمة في مسيرتها الآمنة وراء صحافتها، يظل رئيس التحرير في البلاد العربية يتشقلب في البلكونة بالمجان ويستبدل الأقنعة السياسية كل يوم ويكتب الإنشاء المريع في فوائد الحاكم الجديد ويدلق الجرادل فوق رؤوس مواطنيه مقابل راتبه وحده.

ولدينا في المنطقة ـ من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر سابقاً ـ أكثرمن ألف رئيس تحرير.

ولدينا شارع الصحافة الذي يمتد على طول الأمة العربية مزوداً بكل الاستعدادات الفطرية في كتابة الإنشاء. ولدينا أيضاً ألف موضوع إنشاء كل يوم. ومع ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يجد سبباً واحداً لموت الشعوب العربية ـ الذي يراه العالم بأسره ـ سوى أنها ـ بطريقة ما قد ماتت من السعادة.

فالصحف العربية لا تذكر سبباً آخر..

إنها ـ في الواقع ـ لا تذكر شيئاً على الإطلاق سوى أن الحاكم الجديد قد وصل هذه المرة حاملاً مفتاح الجنة وأنه وجد ذلك المفتاح صدفة فإذا حدث تغيير آخر فإن الصحف العربية تسارع إلى القول بأن المفتاح السابق كان مزيّفاً، وأن الجنة سوف تفتح أبوابها هذه المرة حقاً. أما نقاش الفكرة نفسها والوقوف في مقدمة القافلة بدل الاكتفاء بوصف مهارات الحاكم الجديد، وتحديد الاتجاه بوضوح مقام على المنطق والفكر معاً، فإن ذلك كله يضيع عبثاً في صياغة الإنشاء.

الشعوب العربية في المنطقة تعيش داخل دوامة فكرية مميتة وتلهث بلا انقطاع لملاحقة كل الأفكار المريضة والمستوردة، ويقودها المتشردون الشيوعيون والإمبرياليون والقوميون وقطعان الفقهاء الجهلة وعساكر البندر وباعة القيم الجاهزة الصنع. والسيد رئيس التحرير يتربص بها في البلكونة ويدلق جردله الصباحي فوق رأسها دون أن يخطر بباله أنه يستطيع ـ من باب الرحمة على الأقل ـ أن يترك الأمة العربية وشأنها. فالمرء لا بد أن يكتب شيئاً في الجريدة. إن ذلك قضاء لا بد منه على أي حال، ولا بد أن يتشقلب قليلاً على الحبل ويشيد بأحد ما في هذا العالم، ويشتم رجلاً آخر، ويحشر أنفه في بوق الدعاية البلهاء. والمرء لا يستطيع أن يقبض راتبه إذا خرجت الجريدة غير ملوثة بالحبر. إنه لا بد أن يكتب شيئاً هناك. أعني أي شيء يجده صدفة على رصيف شارع الصحافة.

والسيد رئيس التحرير في البلاد العربية يجد حقاً ذلك الكنز على رصيف شارع الصحافة.

إنه لا يحتاج إلى الذهاب للبحث عنه في أي مكان.. ولا يحتاج إلى التورط في مشقة العمل الفكري الجامح الذي يقع عادة

على بعد بضعة أميال من قشرة الأرض. إنه يولد كاتباً بالسليقة، أعني هكذا مثل الحوتة التي تولد لكي تسبح في كل المياه ويولد حاملاً مشعله المضيء ويدفع القابلة المدهوشة جانباً وينطلق على الفور لكي ينير الطريق أمام مواطنيه.

لا أحد يستطيع أن يعوقه عن أداء ذلك الواجب.

لا أحد، فلا تدع الدهشة تعقد لسانك إذا رأيت ذات يوم طفلاً حديث الولادة ينطلق حاملاً مشعله، وفي أعقابه تلهث العجوز القابلة، إنه مجرد واحد منهم.. أعني من سكان شارع الصحافة..

7 أغسطس 1969

موت السيدة «ف. م.»

قالت السيدة «ف.م.» .. من منطقة دكاكين حميد عندما وقفت بين يدي الله:

ـ «مولاي، أنا ولدت رغم أنفي كعادة الأطفال.

وقطعت القابلة صرتي بأسنانها، ووضعتني في قدر من الماء الساخن، وتركتني أنضج مثل سلحفاة مسلوخة الجلد معلنة لأهل البيت أن نجاسة البنت لا يغسلها سوى ماء الدموع.

ثم بكت أمي طوال الليل لأنها أنجبت بنتاً، وزارها ولدي في الصباح وركلها على بطنها وقال إنه يتمنى لو ماتت قبل أن تلد تلك الفضيحة، وعندما سرى النبأ بين جيراننا، وسمعت ما يقال في دكاكين حميد عن إنجاب البنات، بدأت أشعر بالعار من نفسي قبل أن تمضي ساعتان على ميلادي وكانت دارنا متسخة مثل جحر خنفساء.

وكانت الأرض تطفح بالمياه وبقع الدم، وحبل النفاس يتأرجح في النافذة عبر العتمة ورائحة البخور والعجائز. ولقد خيّل لي ـ فيما كانت القابلة تلفني في خرق القماط الخشنة ـ أنني هبطت من سمواتك العظيمة في طبق من المسامير.

وكبرت رغم أنفي كعادة الأطفال.

وكانت والدتي تعدني لأداء مهمتي في منطقة دكاكين حميد، وقد علمتني كيف أغسل الصحون بالعوين وأغسل جوارب إخوتي والحصران القديمة وأمسح البلاط والمرحاض يوم الجمعة وأوقد النار بعود ثقاب واحد. وعندما بلغت الثامنة من عمري عهدوا إليَّ بإعداد قهوة الصباح.

وبدأت أصحو قبل معظم الطيور.

وأوقد النار بعود ثقاب واحد، وأمسح البلاط ريثما يغلي ماء القهوة، وأغسل خرق الطفل الذي ولدوه بعدي، ثم أجر قدمي المتعبتين إلى المدرسة وأبحث طوال الطريق عن عذر مناسب أقوله لمعلم الحساب.

وكان ذلك المعلم لا يكفّ عن تقريعي، وكانت والدتي تدق عنقي كلما وجدتني أكتب واجب الحساب».

ثم قالت السيدة «ف.م.» بين يدي الله

ـ «كبرت رغم أنفي كعادة الأطفال.

وغطوا وجهي بقطعة قماش زرقاء وأعلموني أن النساء في ليبيا يخبئن وجوههن بالقماش الأزرق اتقاء لنار الحب. وقد أفزعني أن أكتشف في اليوم التالي أن العالم بأسره صار أزرق اللون. الشمس والشوارع ووجوه المارة والتراب وولد جارنا الذي كان ينتظرني كل يوم عند مدخل الزقاق.

صار حبيبي أزرق اللون.

وقد رأيته يبتسم من وراء قطعة القماش وسمعته يقول لي إنني أصبحت عروسة زرقاء، وحلمت به طوال الليل. وفي الصباح رأيته يمد لي رسالة صغيرة، وكنت أنوي أن أشتمه كما تقضي التقاليد

عندما خرج والدي من البيت فجأة ورأى ولد جارنا عند مدخل الزقاق.

ومنعوني من الخروج.

ضربني والدي حتى دقّ ضلوعي، وبكت والدتي طوال الأسبوع، وقالت إحدى جاراتنا إنني بنت داعرة مثل بقية بنات المدرسة. ثم منعوني من الخروج.

وبقيت في البيت رغم أنفي كعادة النساء.

كنت أمسح البلاط وأغسل الخروق وفناجين القهوة والجوارب، ثم بدأت أعد وجبات الطعام، ولم يعد ثمة ما تستطيع والدتي أن تفعله في بيتنا سوى أن تذهب إلى مكة المكرمة.

وقد ذهبت إلى هناك وماتت في طريق العودة بضربة شمس. وكانت والدتي لم ترَ الشمس إلاّ في مكة المكرمة».

ثم قالت السيدة «ف.م.» بين يدي الله:

ـ «مولاي، أنا تزوجت رغم أنفي كعادة النساء.

جاء نجار من الزقاق وطلب يدي في المربوعة، وقد سمعته يتحدث ورأيته عبر ثقب الباب وكرهته كما يكره المرء قملة. وعندما نام بجانبي ليلة الجمعة وأحرق عيني برائحة قدميه بكيت من الغضب حتى طلع الصباح.

ثم مسحت دموعي وطفقت أمسح البلاط وأغسل الخرق والجوارب، والحصران وأعد وجبات الطعام خمس مرات في اليوم. وكان النجار يغرقني بالحب ويتسلق صدري كل ليلة مثل قملة. وكنت أعرف أن الحب في دكاكين حميد مثل غسيل الحصران مجرد واجب من واجبات الزوجية».

ثم قالت السيدة «ف.م.» بين يدي الله:

ـ «وذات يوم يا مولاي فسد العجين في بيتنا واضطررت أن أطل برأسي عبر الباب لكي أبحث عن طفل يحمل خبزنا إلى الفرن، وقد رآني جارنا الخراز ووشى بي عند زوجي فدقّ ضلوعي بعصا المكنسة، ودعاني امرأة عاهرة وربطني بحبل البئر طوال النهار. وعندما ذهبت إلى بيت والدي أعادني إليه في المساء وقال لي إن عصا النجار من الجنة.

وعدت أمسح البلاط وأعدّ وجبات الأكل وأطارد الصراصير بفردة الحذاء وأغسل الخرق والصحون وأنجب الأطفال وأخيط الأزرار المفصومة وأترك النجار يعضني في عنقي عندما يعتريه الشبق خلال الليل».

ثم قالت السيدة «ف.م.» بين يدي الله:

ـ «مولاي، أنا قضيت في دنياك خمسين عاماً من نسخة واحدة.

وعلت وجهي التجاعيد وانحنت ركبتاي في نهاية المطاف، وطفق شعري يتساقط من أثر الرطوبة. وذات يوم وجد زوجي شعرة في صحن العشاء، وضربني بحزامه الجلدي حتى أسال دمائي ثم ربطني في حبل البئر. وعندما ذهبت إلى الطبيب في الصباح ضمد جراحي ورثا لحالي وقال لي إنني مصابة بالروماتزم والسل وقليل من السرطان.

ثم متّ رغم أنفي كعادة النساء.

واكترى زوجي فقياً قرأ عند رأسي ﴿قل هو الله أحد﴾ ألف مرة مقابل عشرة جنيهات ووضعوا جثتي في قدر من الماء الساخن».

ثم قالت السيدة «ف.م.» بين يدي الله:

ـ «مولاي، أنا جئت إلى دكاكين حميد في قدر من الماء الساخن. وخرجت في القدر نفسه دون أن أحمل من دنياك سوى آثار الحزام الجلدي وعصا المكنسة.

مولاي، أنا لم أرَ من دنياك الزرقاء سوى البلاط وصراصير مرحاضنا وفردة الحذاء.

ولم أسمع شيئاً سوى شخير النجار ونهيق بغال العربات والإذاعة الليبية.

مولاي، أنا قضيت في دكاكين حميد خمسين عاماً من نسخة واحدة. ودفنوني بعد ذلك في المقبرة التي تقع على بعد مائة متر من بيتنا، فهل أرسلتني إلى الدنيا لكي أمشي فيها مائة متر داخل نعش؟

وضع الله يده على رأس السيدة «ف.م.»

وأمطرت السماء بدموع امرأة.

1 يونيو 1968

مشوار

«الفولكس فاغن أيضاً هي عربة الشيطان»

عندما رأيت عربة الفولكس فاغن لأول مرة لفت انتباهي شكل العلامة المسجلة فوق أنفها. لقد كانت تشبه الوشمة التي تحملها جارتنا في المكان نفسه بالضبط، لكن جارتنا لم تكن عربة فولكس فاغن.

عدت إلى بيتنا مشغول البال.

رسمت العلامة المسجلة بالفحم على الجدار. تذكرت الحاج الزروق الذي اشترى جارتنا بالتقسيط.

هل تعتقد أنه يملك رخصة قيادة؟ .. نمت مشغول البال..

تذكرت في الحلم أن الحاج الزروق ينظف امرأته بين حين وآخر بعصا المكنسة. هل تعتقد أنه كان ينظفها، ولكنها كانت تصرخ بأعلى صوتها. يا إلهي كيف كانت جارتنا تصرخ مثل الناس؟

أعني كان الحاج الزروق يكتب لها كل مخالفة بعصا المكنسة.

في اليوم التالي تسلقت الجدار إلى بيت جارتنا.

ذلك ليس بنية سيئة ولكن الحاج الزروق كان يغلق الجاراج

بالمفتاح عندما يذهب إلى دكانه وكان يضطرني إلى أن أتسلق الجدار لكي أشتري الخضار لامرأته.

«زيت» قالت عربة الفولكس فاغن «قرش ونص زيت وربطة معدنوس وفلفل وقرش طماطم. كنك تضحك كيف البنت؟».

أنا لم أرَ في حياتي بنتاً ليبية تضحك، ولكني لم أقل ذلك لجارتنا. فقد كنت مشغول البال بأمر آخر.. أعني بالخضار. ربطة معدنوس وقليل من الطماطم. هل تعتقد أن عربة الفولكس فاغن اقتصادية حقاً إلى هذا الحد؟

«اركب» قالت جارتنا وهي تحني ظهرها لكي أتسلق الجدار «ومرّ على دكان الحاج الزروق وخذ منه التكاليف» أربعة قروش ونصف في اليوم بالإضافة إلى إيجار الجاراج. هذا جنيه وخمسة وثلاثون قرشاً في الشهر زائد خمسة جنيهات. قل عشرة جنيهات الكل في الكل. أنا أعتقد أنني أستطيع أن أقلع عن التدخين وأشتري جارتنا.

«عيب» قال الحاج الزروق عندما عرضت عليه الفكرة «وأنا لا أبيع امرأتي ثم إنني ما زلت أحتاج إليها حتى يكبر اعليوه. إسمع أنا لم أعد أريدك أن تشتري لنا الخضار». هل تعتقد أنه سيربط كلبه فوق السطوح؟

في اليوم التالي ربط الحاج الزروق كلبه الأحمر فوق سطح بيتنا. لقد رأيت أسنانه عن قرب عندما رفعت رأسي فوق حافة الجدار، ورأيت أنه لم يعد يعرفني.. هل تعتقد أنه سيبقى هنا حتى يكبر اعليوه؟

في يوم عاشوراء رأيت اعليوه. كان يجلس كالعادة في المقعد الخلفي، وكان لم يكبر بمقدار عقلة اصبع وقد اعتراه الخوف مجرد

أن تحركت عربته وطفق يصرخ بملء رئتيه ويرفس بقدمه. أنا أقول إن المقعد الخلفي في معظم عربات الفولكس فاغن يبعث على الضيق، ولكن اعليوه أيضاً ولد مدلل.

جارتنا استدارت عند ناصية الزقاق دون أن تعطي الإشارة.

الحاج الزروق يراقبها خلسة من وراء دولاب الخبز في دكانه ويهز رأسه باستياء. لقد وعدته بأن لا تلبس السروال الوردي إذا تركها تذهب لزيارة سيدي عثمان ولكنها لم تفِ بوعدها. إن السروال الفاقع اللون يعصر قلب الحاج الزروق ويشعره بالذل. هل تعتقد أن سيدي عثمان يفضل اللون الوردي؟

«اطلع يا حاج» يقول شيخ المحلة الذي يجلس دائماً أمام دكان الحاج الزروق «إطلع شوف الموضة الجديدة القماش اسمه ضي الكراهب والمتر بجنيهين». لكن الحاج الزروق لم يطلع بمقدار عقلة اصبع. لقد كان يعرف كل شيء عن ضي الكراهب. وكان مشغولاً بتسجيل المخالفة. هل يسمح القانون عندكم بإضاءة المصابيح في وجه شيخ المحلة؟

جارتنا استدارت مرة أخرى دون أن تعطي الإشارة.

عبرت الرصيف المحاذي لدكان البقال واتجهت إلى الشارع المقابل. اطلع الميكانيكي صاحب الورشة الأهلية رأسه من فرجة الباب الضخم وتفحص رجليها بعين الخبير.

«الله» قال الميكانيكي عن جارتنا «عليك باراكولبي» أنا لا أعرف بالطلياني، ولكن اعليوه المدلل سارع إلى الصراخ بصوت أعلى. هل تعتقد أنه يريد أن يلفت نظر الميكانيكي إلى ضيق المقعد الخلفي؟

مشينا في الشوارع ..

وقفنا عند الضوء الأحمر. سمعنا صفارة شرطي المرور عندما مررنا بجوار المقهى، ثم سمعناها عندما مررنا بجوار الحلاق والجزار وبائع الزريعة. سمعناها في الواقع في كل مكان حتى خيل لي أن سكان بنغازي كلها شرطة مرور، لكن الشارع لم يكن يضم سوى جارتنا الفولكس فاغن.

«الله» قال بائع الزريعة وهو يفحص عجلات جارتنا «الله.. عليك مرسيدس» ثم غمزني بعينه من باب إبداء الحسد.

أغلقت له عينه الأخرى بحجر وجدته على الرصيف.

ضربت بائع الزريعة في ساعات العمل، اعتديت بالضرب على شرطي المرور أثناء تأدية واجبه وقلبت له طبق الزريعة فوق رأسه.

مشينا في الشوارع. تفرجنا على العالم بعين واحدة، سمعنا اعليوه يصرخ بأعلى صوته لكي يخبر المارة بأن المقعد الخلفي مبلول إلى حد لا يحتمل. هل تعتقد أن المرء يرى نصف العالم فقط بعين واحدة؟

«الله» يقول الشحاذ على باب سيدي عثمان «الله.. عليك اعيون» ثم يلوي اصبعيه لكي يخبر زميله بأن عيون جارتنا مثل فنجان القهوة. هل عندكم شحاذ يفضل القهوة إلى هذا الحد؟

قرأنا الفاتحة على الضريح ولا حياة لمن تنادي.

طفنا بأركانه الأربعة وقبلنا كل كراع خضراء على حدة. أوقدنا أصابعنا شموعاً لكي يقرأ المرابط عرض حالنا عندما يستيقظ. اكترينا شحاذاً مستجاب الدعوات، ودعت جارتنا على الحاج الزروق وأنا دعوت على كلبه الأحمر وبعض الصحف الليبية. هل عندكم صحفيون من طراز فولكس فاغن؟

مشينا في الشوارع في يوم عاشوراء حزناً على الحسين.

مشينا بعين واحدة واحتفلنا بكل خطوة واصطدمنا ذات مرة بعربة فولكس فاغن لكن أحداً لم يصب بسوء. كان اسمها مقبولة ل.ب وكانت تمشي مثلنا في يوم عاشوراء حزناً على الحسين.

17 أكتوبر 1970

الحبل

الصحف العادية تتحدث عن الناس العاديين.

أعني عن معشر الانس والأمم المتحدة ومشاكل العالم المرئي..

الصحف الليبية تتحدث عن العفاريت وارتفاع أسعار البخور في مملكة الجن ورداءة المواصلات إلى العالم السفلي.. القارىء العادي يقرأ صحفه لكي يعرف منها ما يحدث تحت السطح.. أنا أقع في الوسط وأملك فرصة سانحة لكي أؤدي اللعبتين معاً وأعرف ما يجري في عالمنا من الداخل والخارج على السواء. لكن مشكلتي أن هذه المعرفة المضاعفة لم تمنحني شيئاً حتى الآن سوى حالة واحدة من الصداع الدائم.. إنني أعمل بمثابة حبل يشده أهلنا من جهة ويشده بقية العالم من جهة أخرى وأسوأ ما في الأمر أنني حبل يشعر بالصداع..

في الصباح الباكر أقرأ في صحف هلسنكي أن أحداً ما هبط فوق القمر وانطلق يتفرج على أرضنا من الخارج كما يتفرج أستاذ العلوم على قردة مسنّة في حديقة الحيوان! وعند الساعة العاشرة تصلني جريدة ليبية في البريد وأجد فيها ثمة من يقول لي بالحبر

الأحمر في الصفحة الأولى «أيها الأخ.. رد بالك من الغولة».. بعد الظهر أقرأ في صحف المساء أن معهد أبحاث السرطان في مدينة استوكهلم قد نجح في عزل خلية المرض، وأن هذا النجاح يهم الناس جميعاً لأن السرطان بالذات هو العدو الوحيد لجميع الناس، وفي بريد المساء تصلني صحيفة ليبية أخرى وأجد فيها ثمة من يقول لي ناصحاً «احترس من الجن أعداء الإنسانية.. وآمش على الرصيف»..

طوال الليل أصاب بالأرق.. أدخن ما أملكه من التبغ وأحرق ملاءة السرير وأحاول أن أعرف عما إذا كان الجن وحده هو عدو الإنسانية. عند الفجر أصاب بالإرهاق وأعلن لنفسي في محاولة فاشلة لحل المشكلة أن الجن والسرطان معاً أعداء للإنسانية لكن أحداً لم يكشف هذا الثنائي غير المرح حتى الآن لأن الليبيين يعرفون واحداً فقط وبقية العالم يعرف الآخر فقط أيضاً.. طوال النهار التالي أذرع المقاهي لكي أقنع الناس بوجود الجن وأقنع الليبيين بوجود السرطان وأجمع الإنسانية في طبق واحد.. ليس ثمة فائدة. لا أحد هنا يؤمن بوجود الجن.. لا أحد هناك يؤمن بوجود السرطان.. أنا أؤمن بهما معاً وأصاب بالصداع..

خلال الليل تنفذ علبة الأسبرين..

وأدق رأسي في الجدار من باب إظهار الألم لكي أكسب عطف صاحبة البيت وأتركها تذهب إلى الصيدلية وتحضر لي علبة أخرى، لكن السيدة تملك دائماً سؤالاً أو سؤالين.

«لماذا لا تذهب بنفسك؟» تقول السيدة عادة.

«لأني محترس من الغولة» أقول لها وأدق رأسي في الجدار..

«الغولة».. أقول لها شارحاً.. «أشباح الناس الميتين الذين

يخرجون في الليل بدون رؤوس ويطاردون المرء عندما يذهب إلى الصيدلية».

«بف» .. تقول السيدة على عادة النصارى في إظهار عدم الإيمان «أي أشباح؟ ليس ثمة أشباح على الإطلاق، هل رأيت في حياتك شبحاً قط؟».

في غمضة عين أحضر لها الجريدة الليبية.. في غمضة عين أقلب أمامها الصفحات حتى أجد لها المقال الافتتاحي الذي يتحدث عن وجود العفاريت. في غمضة عين تلقي السيدة نظرة بسيطة على الصحيفة ثم ترميها من يدها وتعود للنوم..

إنها لا تستطيع أن تقرأ كلامنا..

ولا تستطيع بالطبع أن تصدق ترجمتي، ولم ترَ في حياتها جريدة تتحدث عن الأشباح. وليس ثمة فرصة واحدة لإقناعها بالذهاب إلى الصيدلية.. إن المكتوب هو المكتوب.

وأنا كتب الله على جبيني أن أعيش في الوسط بين الناس الذين يؤمنون بالغولة وبين الناس الذين لا يؤمنون بكلمة واحدة عنها.. بين محرر يقول لي بالحبر الأحمر «أيها الأخ.. احترس من العفاريت العضاضة» وبين صاحبة البيت التي تقول لي بالعين الحمراء «الزم الهدوء قبل أن أكسر رأسك».

إن الرأس بالذات ليس شيئاً بالنسبة لمن يعيش مثلي في الوسط.. إنه مجرد مصدر للألم سواء كسرته صاحبة البيت أو شقّه الصداع إلى نصفين حتى الصباح.. كل ما في الأمر أن الصباح السخيف لا يشرق بسرعة إذا عرف أنك خائف من الغولة.

إنه ينتظر مائة عام على باب البيت.. ينتظر ويضحك في سره ويتركك للظلمة المثيرة للريبة.. وتنتظر أنت مفتوح العينين وترى

الظلال تتلاعب أمامك كالقطط، وترى الكرسي يتسكع في الغرفة على هواه وظل معطفك ينبت رأساً وقدمين والسقف يزدحم بالمارة وتسمع قلبك يدق مثل ناقوس المطافىء وتحس بشفتيك المتيبستين من الرعب وتبللهما بقليل من البصاق.. وتعرف إذ ذاك انك وحيد. وأن أحداً على مد العين لا يشاركك وحدتك.

الناس الذين يسكنون معك في البيت، والناس الذين يقيمون معك في المدينة أو في القارة بأسرها، كل مخلوق منهم مشغول بحياته وعالمه. كل مخلوق منهم ينام ملىء جفنيه بدون صداع. وإذا داهمه الصداع يذهب هادىء البال إلى الصيدلية ويشتري لنفسه علبة أسبرين.. أنت وحدك تنتظر الصباح وترتجف رعباً أمام ظل معطفك.. أنت وحدك لأنك ليبي وحيد وتقرأ الصحف الليبية.

ذلك أمر مؤلم..

أعني أن تجلس وحدك وتترك دماغك يعمل كحصان مجنون يذرع بك الدنيا والناس والمسافات ويتركك تحس بأنك ضئيل وعقيم مثل برغوث عاقر ذلك أمر مؤلم جداً..

أعني أن تعرف..

وتعرف بالذات أنك تعرف حقاً وأن الله لم يخلق غولة واحدة تستطيع أن تمنعك من الذهاب إلى الصيدلية وأن الله أيضاً لم يخلق جنياً واحداً يستطيع أن يخبطك أو يحرك كرسيك من مكانه أو يمارس تجاهك أية حيل غير مرئية. أعني تعرف أن عالمك آمن وطبيعي إلى حد الملل، وأن الله لم يملأه لك بالمخلوقات السرية، وأنه إذا كان قد ملأه حقاً لسبب ما فإن هذه المخلوقات ستبقى سرية إلى الأبد ولن تحاول الاحتكاك بك ولن تطاردك في الظلمة أو في وضح النهار ولن تشج رأسك بحجر لأن الذي يطاردك ويشج

رأسك لا يبقى مخلوقاً سرياً بل فتوة مطلق السراح. ولأن الله لا يصنع هذا العالم البديع ثم يطلق فيه سراح الفتوات لكي يعبثوا بعباده المرئيين. يصبح ذلك مؤلم جداً جداً.

أن تعرف وجه الحق.

وتعرف بالذات أن الله العادل لن يصيبك *بالصداع* ثم يضع لك غولة في طريق الصيدلية ولن يلزمك بمد المجاري ويملأ لك الخرارة بملوك الجن ولن يقبض نفس إنسان ثم يترك غولته تتسكع في دار الفناء على هواها وتقذف المارة بالطوب. تعرف أن الله العادل قد أعطاك فرصة عادلة لكي تمد رجليك الماديتين في عالمه وتنعم بحياتك هادىء البال وتدافع عن نفسك تحت ظروف مادية بحتة، مؤلم أن تعرف ذلك ومؤلم أكثر أيضاً أنك ما تزال عاجزاً عن الدفاع عن نفسك حتى ضد الصداع.

وإنك تجلس وحيداً في انتظار الصباح فيما ينام بقية عباد الله، وإنك إذا أصابك الطيش وقررت الذهاب إلى الصيدلية فسوف تقابل غولة حقاً وسوف تطلع لك بدون رأس وتركض وراءك بالأحجار وتقرض قطعة من أذنك. ذلك مؤلم أكثر.

أعني أن تعرف.. ولا تعرف.

أن تعيش بعقلك في نصف العالم المرئي وتعيش بغرائزك البدائية في نصفه الآخر المظلم، أن تحشو دماغك بمعارف هذا العصر المتناهي الوضوح وتحشوه أيضاً بمعارف الكتّاب الليبيين عن الجن وأخواته.. أن تعيش في الوسط مثل الحبل. واحد يشدك من أذنك ويقول لك إنك خليفة الله في الأرض، وإنك سيد هذا الكون بدون منازع، والآخر يشدك من أذنك الأخرى ويقول لك بالحبر الأحمر «احترس من الخرارة، ورد بالك من الأسياد»، أعني ذلك مؤلم وغير معقول جداً.

أن تكون سيد العالم وتكون أيضاً تحت رحمة خرارة البيت، أن تعتبر نفسك سيداً ثم تدعو مخلوقاً آخر من سكان البالوعات والمراحيض باسم «الأسياد» أن تهبط فوق القمر وعينك على البالوعة. أن تكبر حتى تحس رأسك يناطح حذاءك عندما تقرأ عن هزائمهم المتلاحقة أمام العفاريت وقبائل الجن البدائية في صحفنا المتشائمة، إن هذه اللعبة المؤلمة لا بد أن تصيبك طبعاً بالصداع. وتصيبك بالملل في انتظار الصباح وتجعلك أضحوكة في أفواه الجيران وتجعل صاحبة البيت تقول عنك لأطفال الحارة من باب التشهير «هل تعرفون العبد الأسود الذي يقطن في بيتي.. حسناً هل تعرفونه.. هل رأيتم جسده الضخم مثل جسد الحمار. حسناً إنه يخاف من الغولة، ويخاف أكثر من الخرارة!..»..

ذلك يحدث عندما تعيش في الوسط مثل الحبل. يشدك العالم إلى أعلى في اتجاه القمر ويشدك إخوتك الكتّاب في ليبيا إلى أسفل في اتجاه مملكة الجن.. ذلك يحدث ويجعلك تشعر بأنك حبل حقاً وأنك لا تختلف عن بقية الحبال إلاّ في نقطة واحدة. أنت حبل يحتاج إلى الأسبرين وتشهر به صاحبة البيت ويعيش وحيداً بين معشر الإنس ومعشر الجن على السواء لأنه مجرد حبل حقاً.

الصناعة في هامبورغ والحلفا من ليبيا.

23 أكتوبر 1971

والله بالمجان

معظم شعوب العالم تضع في لغاتها كلمات إضافية لا تعني شيئاً محدداً على وجه الضبط، ولكنها تدخل في كل جملة تقريباً بحكم العادة وحدها.. ففي ألمانيا مثلاً لا يستطيع الفلاح البافاري أن ينعم بالحديث معك إلاّ إذا هزَّ لك رأسه في نهاية كل جملة وقال لك أيضاً «غاي؟» وفي فنلندا ينظرون إليك بعيونهم الخالية من الرموش ويسألونك دائماً «فاي ميتا؟» وفي الصين يطلع لك المرء بلسانه.

أما عندنا في ليبيا فإن المواطن الأصيل يقسم «بالله» أعني حتى إذا كان يزمع أن يسألك عن الساعة فقط، فإنه لا بد أن يتذكر الله في نهاية الجملة ويقول لك بعفوية «الساعة كم بالله؟»، وإذا كنت لا تنوي أن تقسم له بالطلاق على أن ساعتك قد توقفت، فأنت مطالب على الأقل بأن تقول له «والله ساعتي راقده».

فالله لا بد منه لكي تعرف الوقت في ليبيا، والله وحده يستطيع أن يثبت أن ساعتك قد توقفت.. والله مجرد كلمة إضافية في حديثنا اليومي، ولكنها تختلف عن بقية الكلمات الأخرى لدى شعوب العالم، لأنها أحياناً تؤدي إلى الجحيم.

وإذا عرف المرء أن ديننا يطالبنا بالصيام ثلاثة أيام متتالية مقابل كل قسم حانث فإنه يمكنه أن يحدس بيسر أن المواطنين الليبيين الذين ماتوا منذ ألف عام ودخلوا الجنة ما يزالون صائمين تحت أشجار التفاح حتى الآن. إن الصيام في الجنة عقاب لا يحتمل.

ومع ذلك فنحن لا نريد أن نتخلى عن هذه العادة الخطرة وإذا حملتك الظروف ذات مرة لكي تسأل عن أحد أصدقائك في بيته فسوف يخرج لك طفله أول الأمر ويقول لك ببراءة «مش قاعد والله»، ثم يطلع صديقك رأسه فجأة من النافذة ويرحب بقدومك، ويعتذر عن سلوك طفله قائلاً «والله ما نحسابك أنت»، وبعد ذلك يدعوك لمشاركته طعام الغداء، ويقول لك مرتين «والله تأكل»، وتهز أنت رأسك وتقول له «والله ما عندي نية» ويعتريه الغضب على الفور ويقول لك «والله تأكل. تخش حوشي وما تأكلش باهي والله؟»..

وعندما تنتهي الحفلة الطارئة تصفي أنت حسابك في الخفاء، وتكتشف بيسر أنك نلت وجبة غداء إضافية مقابل تسعة أيام من الصيام، أحياناً مقابل سنة كاملة، إنك خرجت من بيت صديقك بسلة جديدة من الذنوب غير المتوقعة مقابل ملء بطنك من الفلفل. أعني هذه صفقة خاسرة بحسن نية.

وعلى امتداد حياتنا اليومية يلعب الله دوراً أكثر إثارة.

فالمغني الليبي الذي يذهب إلى الإذاعة لكي يعلن «لسيدته» عن حبه، لا يكتفي بأن ينقل إليها تلك الخارقة وجهاً لوجه بل يقحم الله أيضاً في منتصف الطريق، ويغمض عينيه لكي يقول لها «حبك والله قتلني» أعني هكذا على مسمع من دار الإفتاء، التي تستطيع بالطبع أن تطالبه فوراً بصيام الأيام الثلاثة، ما دام «المقتول» ما يزال يزن مائتي رطل من اللحم والويسكي، وما يزال يغني مثل أحسن

رعد في المنطقة، لكن الفنان لا يحاسب على ذنوبه في دار الفناء. إن عليه أن ينتظر حتى يصل إلى الجنة.

وإذ ذاك سيصوم ألف عام في قصره السماوي المليء بالحوريات، وسوف «يموت» كمداً هذه المرة حقاً.

يفطر في ليبيا، ويصوم في الجنة! أليس ذلك عقاباً معقولاً لأي مطرب ليبي يخطر ببالك وأي ممثل أيضاً.. فالله في الإذاعة الليبية لا يدخل نصوص الأغاني فحسب، بل نصوص التمثيليات والأحاديث العلمية ونشرة الأخبار وأقوال الصحف، وأحياناً أيضاً في النشرة الجوية إنه يحتل المرتبة الثانية في الإذاعة بعد كلمة «إسرائيل» مباشرة. وفي ذات مرة حقق الله رقماً خارقاً خلال تمثيلية قصيرة من «صميم الحياة» بدأت فجأة على هذا النحو:

الزوج: وين العشاء؟

الزوجة: والله ما درناش عشاء.

الزوج: ليش بالله عليك؟

الزوجة: والله عندي ما نطبخ تبي تأكل رأسي؟

الزوج: رأسك؟ توه هذا كلام.. ريت بالله! ما عندها ما تطبخ! باهي والله.

الزوجة: والله هذا الكلام.

الزوج: شنو؟ تو نعطيك طريحة الله الله عليها.

الزوجة: والله؟

الزوج: آه والله. شنو يعني خائف منك.. كويس والله.

وتضطر أنت إلى أن تقفل الجهاز موقتاً بالطبع أن الله لم يعد

بوسعه أن يحل مشكلة العشاء، فيما تقول لك والدتك الوقورة «كنك طفيته؟ خليها والله كويسة».

وتخليها..

وتسمع «الله» إلى النهاية وتسمعه في نشرة الأخبار، وفي حديث اليوم وتنتظر النشرة الجوية وتسمع المذيع يقول لك «والله الجو مش بطال»، ثم تصلك أغنية السهرة، وتقضي بقية الليل في صحبة نغم سماوي يعلن لك بلا انقطاع «راد الله. راد الله. راد الله عليا» فيما يتبرع راديو الجيران بسد الثغرات الباقية بنغم سماوي آخر مؤداه «يا عروسة الله عليك، الله الله الله».

وتنام في أعقاب الحضرة ممتلئاً بروح الله.

وتنهض في الصباح، وتشرب قهوتك الشرقية ممتلئاً بروح الله، ويقول لك جارك عند الباب «الله يصبحك بالخير» ويقول لك البقال «الله يسعد صباحك» وتمتلىء بالخير والسلام وروح الله حتى تصل عند منعطف الشارع التالي، وتجد أطفال جارك يتشاجرون على عادتهم الصباحية وتتبرع بفض الشجار مدفوعاً بمشاعر الخير، ويقول لك أحد الأطفال «بس حول. والله نقتله» فيما يضع الطفل الآخر حقيبته على الأرض ويقول لك بدوره «النبي حول والله ما يقدر ايدير حاجة» وتضطر أنت إلى أن تنتحي جانباً لكي لا تقف حجر عثرة أمام الله والنبي مرة واحدة.

ثم تصل إلى السوق لكي تشتري الخضار. ويقول لك الجزار ذو السن الذهبية «حولي والله» وترى أنت رأس الفيل بعينيك، ولكنك تضطر إلى الشراء من باب المجاملة لله. وبعد أن يدس لك عظمة الساق بأسرها في الخفاء يقول لك بصوت خافت محاذراً أن يسمعه بقية الزبائن «والله خير من ميزانه ذهب».

وفي البيت تقول لك والدتك وهي تراقب قطعة اللحم المزرية «شنو هذا؟ والله حتى الكلب ما ياكلها» وتذهب أنت ضحية الله بين الجزار وبين والدتك الوقورة، وتحس بالخيانة ـ بدل مشاعر الخير ـ وتهرب إلى المقهى بدون إبطاء وتقول للجرسون «بالله ديرلي قهوة» وبعد ذلك تتورط في نقاش مشاكل الساعة وتسمع أن الأميركان هبطوا فوق القمر، وتسمع جارك في الكرسي المجاور يعلق على هذا النبأ قائلاً بذهول: «هالله.. هالله.. هالله».

وتحس بالحاجة إلى أن تنفث حزنك دخاناً في السماء وتسأل صاحب المقهى بأعلى صوتك «بالله عندك دخان؟» ويصلك رده على الفور «لا والله يا خويا»، ويتبرع أحد الرواد بعلبة تبغه ويضعها أمام أنفك ويقول لك: «خوذ.. والله تأخذ».

وتنفث حزنك دخاناً مستعاراً في السماء، وتراقبه بعينيك، فيما يظل الله يهاجمك من كل جانب حتى صلاة الظهر. إذ ذاك تهرب إلى بيتك مزمعاً أن تقتل حزنك بالهريسة، وتطالب بالغداء، وتسمع والدتك تقول لك من داخل المطبخ «مازال شوية والله».

أعني ليس ثمة مفر..

فالله في ليبيا مجرد كلمة شائعة بين المواطنين، مجرد عادة محلية يحملها المواطن على طرف لسانه ويعبر بها دار الفناء كما يعبر المرء النهر بقاربه دون أن يعرف أنه في معظم الأحيان يجدف فوق اليابسة.

فالله ليس قسماً في لغتنا العامية، إنه مجرد كلمة ترد ـ عفواً ـ داخل جملة تقريباً وترد دائماً بحكم العادة الرديئة التي يتبناها المواطن خلال تجربته في تعلم الكلام، ولكنها ـ فيما يبدو ـ العادة الوحيدة في العالم بأسره التي لا تكتفي بإفساد «حياة» المواطن فقط

بل بإفساد «موته» أيضاً. إنها تقوده من ليبيا إلى الجحيم مباشرة دون ثمة داع على الإطلاق، بالإضافة إلى أنها ستبقى إلى الأبد عادة عديمة الجدوى.

فالمواطن الليبي لا يصدقك على أي حال إذا أقسمت له «بالله» لقد تعلم الخدعة بدوره وعرف أيضاً أن الله وحده لا يكفي، وأنه لا يحمل عصاه في يده لكي يكسر لك ظهرك، وأنه مجرد كلمة تقال عفواً في كل مكان من دكان الجزار صاحب السن الذهبية إلى دار الإذاعة.

لذا، فإن المواطن عندنا لا يصدقك إلاّ إذا أقسمت له بالطلاق، أعني ما دام الأمر ليس مهماً حقاً بالنسبة له. أما إذا أثرت شكوكه في ذلك اليمين فإنه سيجرك بالتأكيد لكي تقسم له على ضريح المرابط المجاور بعد أن تخطو ثلاث خطوات وتلمس الصندوق بيدك. وأنت تستطيع أن تتوقع إذ ذاك عصا المرابط ترتفع فجأة من دار الآخرة وتسقط فوق رأسك وأحياناً، أعني في الحالات ذات الأهمية يقصفك المرابط بمدفعه الهاون. إن الموتى عندنا أكثر كفاءة من الله نفسه.

والأمر يدعو إلى الحزن مرتين.

مرة لأن الله ليس لعبة في فم أحد، ومرة لأن مواطننا الطيب القلب الذي جعل اسم الله مجرد كلمة تقال لم يعد لديه ثمة ما يدعوه إلى الثقة في أحد سوى أن يسمعه يقسم له برأس امرأته أو يدق أمامه فوق صندوق رجل ميت. ذلك القسم الذي لا يبدو مجرد اعتراف باليأس.

فتعلموا أن تقلبوا هذه اللعبة رأساً على عقب.

دعوا الله جانباً، واسألوا عن الساعة هكذا «كم الساعة» أو «كم الساعة بجاه سيدي عبد السلام» إن ذلك على الأقل سينقذكم من الصيام على بعد شبر واحد من الحوريات.

13 يوليو 1970

الشك

.. زمان كنت أعتقد أنني أعرف في الواقع كل شيء عن بنغازي.. أعني أعرف الشوارع والمباني والأزقة الخلفية والمرابطين وباعة الألبان والزعماء السياسيين والسيدة «امحظية».. وكنت أعرف بالذات أن بنغازي تخص هؤلاء المواطنين فقط، لأنهم ولدوا فيها من جهة، ولأنهم من جهة أخرى السكان المعترف بهم رسمياً في سجلات البلدية وخطاب العرش معاً.. ولقد عشت بعد ذلك ألف عام على أرصفة سوق الحشيش دون أن يخطر ببالي أن هذه المعرفة الواضحة قد تبدو ذات يوم قابلة للشك.. لكنها بدت على أي حال..

حدث ذلك ذات مساء ممطر عندما كنت أذرع أزقة دكاكين حميد بحثاً عن أحد الفقهاء الذائعي الصيت في المنطقة. كنت أحمل له طلباً عاجلاً من ولده الذي يدرس في روما لكي يزوّده بحجاب القبول عند النساء بعد أن قضى خمسة شهور كاملة يصارع جشع الوسطاء السيسليين إلى آخر فرنك من مدخراته.. وكنت أطمع بالطبع في الحصول على حجاب مماثل مقابل هذه

الخدمة العارضة، فالمرء لا يستغني عن معونة الأسياد في صراعه ضد الوسطاء السيسليين، ثم إن الفقي لن يخسر شيئاً على أي حال إذا أعطاني جنياً صغيراً أسلّطه ضد نساء النصارى.. لكن العجوز المقدس لم يكن في بيته..

لقد خرج لطرد بعض العفاريت من الشارع الخلفي، أعني هكذا قالت امرأته، وقالت أيضاً إنه لن يعود قبل منتصف الليل نظراً لحاجته لكي يحدد مكان العفاريت بالضبط.. وقد بدا من الواضح أنني مضطر لانتظاره على ناصية الشارع تحت رحمة المطر، لكن ذلك لم يضايقني كثيراً، فالمرء يستطيع بالطبع أن يحتمل بعض المتاعب مقابل بقية عمره من الراحة.

وقد انتظرته واقفاً في المطر حتى تعبت قدماي من الوقوف ثم وجدت حجراً مرتفعاً في وسط الشارع وقررت أن أستريح فوقه لبعض الوقت.. وإذ ذاك سمعت أحداً ما يقول لي من تحت الحجر:

«اتفوا .. انهض .. لماذا تجثم فوق صدري هل تعتقد أنني كرسيك؟»..

ونظرت إلى الحجر غير مصدق، واكتشفت أنه قبر رجل مرابط، وأنني جثمت فوق صدره حقاً دون أن أدري حتى كاد أن يختنق.. وعندما قفزت فجأة معلناً اعتذاري قال لي المرابط معيراً فيما كان ينفض لحيته من أثر حذائي «أنتم جميعاً عميان، أعني أعوذ بالله منكم.. إن المرء لا يستطيع أن يغمض عينيه بينكم دون أن يجد أن أحدكم قد وضع حذاءه في فمه أو جثم فوق صدره وشرع يلعب السيزة.. ماذا دهاكم.. ألم يعد بوسعكم أن تروا موضع أقدامكم؟».

وفي البداية خطر ببالي أن المخلوق الغاضب الذي خرج من تحت الأرض مجرد مواطن مثلي دعته ظروف الحياة في بنغازي إلى

الاختباء لسبب أو لآخر، وعرضت عليه لفافة تبغ مزمعاً أن أستدرجه لكي أعرف سره. فقد كان من عادة بعض الرجال في أزقتنا أن يحفروا السراديب الخفية التي تؤدي عادة إلى بيت امرأة الخفير. لكن المرابط لم يهتم بلفافتي، لأنه كان قد مات قبل اختراع التدخين بقرن كامل. ولأنه كان في عجلة من أمره لكي يصلي العشاء. وقد أوقد شموعه فوق رأسه وانطلق يصلي ويدعو على سكان بنغازي الذين يدوسون قبره ويطلب من الله أن يزيدهم عمى.

وإذ ذاك نسيت الوسطاء السيسليين.

ونسيت الحجاب والنساء في روما والجري طوال الليل وراء بائعات الصحف والزهور على أبواب النوادي الليلية وانطلقت أركض على غير هدى في أزقة دكاكين حميد بحثاً عن الشارع العام المؤدي إلى بيتنا. كان ظهور المواطن السفلي قد أصابني بالرعب، وكنت قد بدأت ـ لأول مرة منذ أن تعلمت المشي في بنغازي ـ أراقب موضع قدمي لكي لا أتورط في ركل أحد ما على رأسه. لكن العجلة من الشيطان كما يقال عندنا.. وقد وقع المحظور على أي حال، وسقطت قدمي في غفلة مني فوق خرارة خاصة قادمة من وراء أحد الجدران، وسمعت الصوت السفلي الواضح النبرات يقول في سخط:

«عمى! ألا ترى أين تضع حذاءك القذر. ما هذا.. إن الحياة تحتكم لا تطاق!»..

وتوقفت لأعتذر. كنت أريد أن أشرح للمواطن غير المرئي أن الأمر حدث عفواً، وأنني بالطبع لا أقصد قط أن أدوس فوق رأسه.. لكنه لم يشأ أن يستمع إلي.. كان ممتلئاً بالسخط على سكان دكاكين حميد، وكانوا قد داسوا فوق رأسه بضع مرات

خلال ذلك المساء. ولقد بادر على الفور فالتقط حجراً ورماني به، لكن الحجر لم يصبني على أي حال بل مرَّ بجانب أذني فيما كنت أركض مبتعداً وأصاب أحداً ما في الظلمة. ثم سمعت المصاب يصرخ من فرط الوجع ويقول لساكن الخرارة:

«عمي.. ألا ترى أين ترمي أحجارك الكريهة أعني لماذا لا تحل مشاكلك مع الأنس بطريقة أخرى؟».

كان فيما يبدو مواطناً سفلياً أيضاً، وكانت دكاكين حميد تنقلب رأساً على عقب..

ولقد ركضت بكل قطرة حياة في عروقي..

وقفزت فوق البالوعات، وذكرت اسم الله على كل خرارة وركضت.. وركضت مزمعاً أن أصل إلى الشارع المغطى بالإسفلت قبل أن أتورط في معركة أخرى، لكن أحداً ما أغلق الطريق أمامي في شارع الجامع وقال لي ساخطاً:

«عد إلى الوراء.. إنني لا أزمع أن أغادر مكاني مرة أخرى من أجل إنسي مثلك.. هل تعتقد أننا لا نملك حق الراحة؟».

وكان ذلك شخص الجامع، يتكون في وسط الزقاق ويسده من جانبيه. وقد ذكرت له أنني في عجلة من أمري وأنه لا يملك الحق في إغلاق الشارع ما دامت البلدية لم توص بذلك، لكن البلدية لم تكن تهمه، ولم يكن يهمه أحد من سكان السطوح، وقد اكتفى بأن قال لي «امش ملح» ورفع رأسه في السحاب.

واضطررت بالطبع إلى أن أعود إلى الوراء.

وبحثت عن زقاق آخر وراء الجامع وعبرته تحت وابل من الأحجار، ثم رأيت أحد المواطنين يمشي بجانبي بدون رأس وسمعته يضحك علي أيضاً لأنني أملك رأساً. وعندما قلت له إن الأمر لا

يدعو إلى الضحك لأن جميع المواطنين في بنغازي يحملون هذه الجمجمة فوق أكتافهم، اعتراه الخوف وطفق يقرأ آيات الكرسي.

كنت قد بدأت أثير الرعب بين المواطنين السفليين.

وكان وجود رأسي وحده يؤدي هذه المهمة دون أن أدري.. وقد شرعوا يتفرقون من طريقي بمجرد أن أظهر لهم في أحد الشوارع، وشرع الأطفال من العفاريت يصرخون من الرعب. وعندما مشيت بحذاء مقبرة سيدي الشريف، كان رعب العالم السفلي قد بلغ مداه، وكان المرابط نفسه يطاردني بسماره لكي يرصدني.

«أنتظر» أقول للمرابط صاحب المسمار «انتظر.. أعني ماذا دهاكم.. من منا يرصد الآخر؟ من منا يملك حق المشي في هذه المدينة اسمع.. أليست هذه مدينتنا؟». ويتوقف المرابط مدهوشاً ويقول لبقية مواطنيه «بسم الله الرحمن الرحيم.. إنه يتكلم مثلنا!.. هل سمعتم ما قاله إنه يتكلم مثلنا!»..

وبعد ذلك يقول المرابط بيأس:

«أنا لا أستطيع أن أرصده.. أدعو سيدي اخريبيش. إنه وحده يستطيع أن يقرأ عليه الطلسم الأعظم ويحبسه في القمقم تحت بحر الظلمات».

وأجري بكل قطرة حياة في عروقي، ويجري مواطنو بنغازي السفلية ورائي بكل قطرة موت في عظامهم. وتمتد المطاردة من مقبرة سيدي الشريف إلى مقبرة سيدي حسين.. وأركض وأركض محاذراً أن أركل سكان البالوعات أو أدخل في شارع مسدود بأمر من الشخص، ويركض الموتى ورائي ويزداد عددهم كلما مررنا بالقرب من مقبرة ما.. وعندما عبرت دكاكين حميد للمرة الثانية

تلك الليلة المريعة. كنت أملك ورائي سكان عشر مقابر كاملة وكان المرابطون يقودون جيشاً يزيد تعداده عن سكان بنغازي الحقيقيين خمسين مرة.

ثم بدأ سيدي داود يلحق بي.

لقد كان أسرع من سواه، وكان يحمل مسماره في يده وعندما انعطفت إلى الشارع المؤدي في اتجاه المرج وجدت سكان المقبرة الرئيسية يعترضون الطريق، ورأيت المرابط نفسه يمد رجله في وسط الشارع لكي يعكفني.

إذ ذاك شعرت بالوحدة. أعني ليس بالخوف أو بالرعب أو الغضب، ولكن بالوحدة المريعة الصاعقة، التي تفاجئك ذات يوم في عقر دارك، وتجعلك ترى بعيني رأسك أن دارك في الواقع لا تخصك كلها.. وإنك مجرد مخلوق وحيد يجلس فوق السطح فيما يتحرك العالم من تحته مثل بحر من المخلوقات الغريبة المقطوعة الرؤوس.

لقد كان اكتشافاً مروعاً..

وكنت أركض وحدي أمام شعب بأسره مقطوع الرؤوس.. ولقد افتقدت الوسطاء السيسليين في روما، وافتقدت حيلهم الصغيرة الخالية من الضرر، ودفنت رأسي بين يدي وشرعت أنتظر رجل المرابط لكي تعكفني.

لكن أحداً ما أيقظني في آخر لحظة من حلمي غير المعقول.. وفتحت عيني على جدران غرفتي البيضاء. ورأيت مخلوقاً واضحاً يحمل رأسه فوق كتفه يقول لي من طرف السرير:

«استيقظ.. لقد حل المساء.. هل قلت إنك تزمع الذهاب إلى دكاكين حميد لكي تزور أحد الفقهاء؟».

ووضعت قدمي على الأرض برفق وتظاهرت بأنني أستعد للذهاب.. لكنني لم أتحرك من غرفتي بمقدار خطوة واحدة ولم أفارقها، ولم أعبر زقاقاً واحداً في بنغازي بأسرها حتى حملت حقيبتي ذات يوم في نهاية العطلة وعدت إلى روما.

وفي المطار قابلني ولد الفقي فارداً ذراعيه. كان الوسطاء السيسليون قد سلبوه آخر قرش في حوزته، وكان ينتظر النجدة على أحر من الجمر، لكنني تظاهرت بأنني لا أعرفه ولم أره في حياتي قط.. أعني ماذا؟.. إن معارف المرء تتعرض أحياناً للشكوك.

25 يوليو 1970

تهانٍ

أنا أريد أن أقول لكم: كل عام وأنتم بخير. وأريد أن أقول أيضاً: كل عام وأنتم طيبون ومبارك عليكم كل شيء.. أجل.. أنا أريد أن أقول لكم: كل عام وأنتم بخير، ولكن هذا تحصيل حاصل فأنتم على أي حال دائماً بخير.. ولديكم وجبة العشاء ومصنع السردين والتبغ وعلاوة السكن والإذاعة الليبية، ولديكم أيضاً مغنٍ يقول «نارك ولاعة يا بلادي».

والمرء لا بد أن يفتح فمه من الدهشة عندما يعرف أنكم حققتم ذلك كله خلال سبعة عشر عاماً فقط. أعني أن المرء يستطيع أن يموت من الدهشة عندما يعرف أن الأمة الليبية لم تستغرق سوى سبعة عشر عاماً لكي تبنى دار الإذاعة وتنال علاوة الغلاء وتردم المستنقعات. فالواقع أن هذه المنجزات لم تتم في أي بلد آخر حتى الآن. أعني لم تتم في المدة نفسها على أي حال. والمرء يستطيع أن يقول بثقة إن ألمانيا الغربية ـ وهي بلد نال استقلاله أيضاً منذ سبعة عشر عاماً ـ لا تملك قانوناً لعلاوة الغلاء. ولم تردم سوى مستنقع واحد متوسط الحجم.

فأنتم أحسن..

أعني أنتم وحدكم بخير، وباقي شعوب العالم تعيش «بأسوأ حال» ففي هولندا يحرثون البحر ويسقونه بالعرق الحامض ويصابون بالسعال ولا يذهبون للعلاج على نفقة الدولة.

وفي اليونان يأكلون من البحر، ويشربون منه أيضاً، ويصنعون من أجساد أطفالهم قوارب لصيد السمك دون معونة من البنك العقاري بالطبع. وفي الصين ينامون في القوارب ويفجرون القنابل الذرية ويحركون الآلات بالعرق دون أن يكون لهم متر واحد من أقمشة هيلد.

شعوب العالم بأسوأ حال. فكل عام وأنتم وحدكم بخير.

تقبضون علاوة الغلاء، وتنهبون البيوت بموجب قانون الإسكان وتأكلون ما يزرع الآخرون بعد أن يصلكم في سفن الآخرين.

كل عام وأنتم طيبون. لأن العالم ـ بدونكم ـ لا يقف على قدميه. ولأنه بدونكم يفقد سيده ويمتلىء بالعبيد الملونين بالعرق ويبدو خالياً من المتعة مثل ألف ليلة بدون شهريار.

العالم بدونكم مجرد بحيرة من العرق الذي يسفحه العبيد في هولندا وألمانيا الغربية واليونان ومناطق السد العالي. والمرء لا يستطيع أن يتصور مدى كآبة العالم عندما يفقد عنصر الإثارة المتمثلة في الشعب الليبي وشهريار.

فأنتم وحدكم بخير، والباقي عبيد في مزرعتكم.

الباقي ينهضون في هولندا مع الغراب ويجلسون في الجرارات العملاقة ويحرثون البحر ويسقونه بجرادل العرق الأسود لكي يطعموا الرجل الليبي فستقاً مقشراً.

والباقي يجلسون في مصانع ألمانيا وراء الآلات والأفران طوال النهار، ويحرقون أعينهم بالسهر لكي يعطوا الرجل الليبي مرسيدس

مقشرة. الباقي مجرد عبيد. والرجل الليبي سيد حافي القدمين يصلي الفجر بعد الساعة العاشرة، ويقود حصانه الحديدي إلى المقهى ويستمتع بالمضغة والحديث عن إسرائيل، ثم يعود في الغداء لكي يأكل وجبة الأرز الذي زرعه عبد إيطالي، وربطة الفجل التي زرعها عبد تونسي والبرتقال الذي زرعه عبد لبناني وقطعة اللحم من النعجة التي رباها عبد صومالي ويغسل يديه بالصابون الذي صنعه عبد أميركي ويمسحها في المنشفة التي نسجها عبد ياباني ويركب حصانه الحديدي الذي صنعه باقي العبيد، ويذهب إلى المقهى ليستمتع بالمضغة والحديث عن إسرائيل.

الرجل الليبي سيد حافي القدمين والعالم كلب في مزرعته.

وما دام الله يقف إلى جانبنا، وما دامت شركات البترول تقف هناك أيضاً، فليس ثمة شك أن العالم سيظل مربوطاً من عنقه أمام بيتنا ويظل يحرسنا ويهز لنا ذيله ويطعمنا فستقاً مقشراً. فالعالم تشتريه النقود كما يشتري المرء أيقونة خشبية من السوق، وما دام خمسمائة مليون جنيه في العام، وخمسة موانىء عاملة في تصدير البترول، فالأيقونات الخشبية لا تملك فرصة واحدة. إنها جميعاً تحت تصرفنا.

ونحن نستطيع أن نواصل اللعبة إلى نهايتها.

أعني نواصل بناء العمارات بعد أن نستورد الطوب من يوغوسلافيا والحديد من ألمانيا والزجاج من إيطاليا والعمال من لبنان.

ونواصل إنجاب الأطفال ما دام في وسعنا أن نطعمهم لبناً مجففاً من سويسرا ونكسوهم ملابس ناعمة الملمس من اليابان.

ونواصل بناء المدن الرياضية ما دامت شركات يوغسلافيا قادرة

على أن تمدنا بالأحجار والرمل واليد العاملة والمهندسين.

نحن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ما دمنا لا نفعله حقاً.. أعني ما دمنا لا نحتاج إلى شيء آخر سوى أن نحك المصباح السحري ونترك عبدنا الجني يحقق مطالبنا.

نتركه ينحني بين أيدينا، ويقول لنا شبيك لبيك وكل عام وأنتم طيبون ثم يوقع معنا عقداً لشراء الأحجار والبصل واللبن المحفوظ في الزجاجات وصناديق البرتقال.

فكل عام وأنتم بخير.

وليبيا تسود العالم وتتركه يعمل في مزرعتها. والليبيون يقودون حميرهم الحديدية ويستمتعون بالمضغة والحديث عن إسرائيل.

كل عام.. حتى ينضب البترول.

وتشد شركة أسو رحالها وتتخلى عنا، وتفرغ الصحون ويتفرق الذباب، والخبراء الأجانب، وتعلن لنا مؤسسة البترول أنها قررت أن تقفل أبوابها لأجل غير مؤقت.

إذ ذاك.. لن يحس أحد أنه بخير.

ولن يكون بوسعنا أن نلعب دور الآغا الحافي القدمين.. إننا سننهض في الصباح مصابين بالصداع ـ كما يحدث عادة عندما يقضي المرء معظم الليل في حفلة صاخبة ـ ونشد قامتنا القصيرة لكي نبدأ الطريق من أوله محملين بالديون.

وسوف يكون الرجل الليبي مصاباً بأكثر من الصداع، وسوف يكون مترهلاً وخالياً من الطموح، وسوف يغمض عينيه ألف مرة قبل أن يفتحهما لكي يرى ليبيا الحقيقية تقبع في رأس إفريقيا ـ مثل عجوز تغسل حصرانها في البحر ـ لا شيء لديها سوى الذكريات القديمة.

إذ ذاك سيتغير وجه العالم بالنسبة لنا.

أعني كما يحدث في جميع القصص.. ينفض عن بيتنا الضيوف ويتركوننا للصداع المتوقع بعد ليلتنا الحافلة بالأحلام والويسكي.

ذلك حدث أيضاً لعلاء الدين عندما فقد مصباحه السحري.. أليس كذلك؟

وحدث للشاطر حسن.. وسوف يحدث لنا أيضاً.

ولكن المرء لا يحتاج إلى متابعة القصة إلى هذا الحد.. فالبترول لم ينته حتى الآن.. وأنتم ما زلتم كل عام طيبين.

وما زالت لديكم وجبة العشاء وشركة المقاولات العامة وعلاوة السكن والإذاعة الليبية.. وما زال لديكم من يقول «نارك ولاعة يا بلادي»..

وسوف تظل النار ولاعة حتى تصلكم رائحة الشياط.

فمبارك ما يقول المغني..

وكل عام وأنتم ـ كالعادة ـ بخير.

24 ديسمبر 1968

بالهناء

«محاولة بريئة لفضح فضيلة غير بريئة»

لحم الإنسان ليس محرماً حقاً.

أعني بالنسبة لنصوص الأديان ليس ثمة ما يحرم عليك أن تجلس ذات مرة وتأكل رأس صديقك، أو ـ على الأقل ـ ليس ثمة نص قاطع يعتبر هذه المائدة غير المألوفة حراماً مطلقاً. باحث يهودي واحد زعم في القرن الماضي أنه وجد نصاً بتحريم لحم الإنسان في إحدى نسخ التوراة لكن الزعم ـ فيما يبدو ـ مجرد أكذوبة يهودية أخرى. إن الكتب المقدسة ـ ببساطة ـ لا تحرم أكل الناس.

ولا تأمر بدفنهم أيضاً.

أعني ليس ثمة نص ديني قاطع يوجب عليك أن تدفن موتاك أو تردمهم تحت الأحجار أو تحملهم فوق كتفك وتقول عند رأسهم «لا إله إلاّ الله». إن الموتى ـ بالنسبة للكتب المقدسة ـ مشكلة تخص الأحياء وحدهم، والمرء يستطيع بالطبع أن يواريهم في التراب بضمير مستريح لكنه يستطيع أيضاً أن يضعهم في زير القديد ويأكلهم على مهل بضمير مستريح أكثر. ليس ثمة فرق بالنسبة للسماء.

مع ذلك فإن الناس لا يأكلون موتاهم. إنهم يفعلون مثل الغراب ويحفرون في الأرض حفرة ويوارون فيها سوأة أخوتهم ويقرأون عند رؤوسهم كلمات الله ويعتبرون الحي الذي يأكل الميت مخلوقاً بربرياً مقززاً. فلماذا؟

أعني لماذا لم تهتم الكتب المقدسة بجثث الموتى ولم تأمر بدفنها أو بأكلها، ولماذا اخترع الناس قانوناً خاصاً بهم في هذا الشأن ولم ينتظروا النص الديني القاطع؟ الإجابة تستطيع أن تدفعك إلى الغضب لكنني أتمنى أن تدفعك أيضاً إلى قليل من الضحك على عقمنا الفكري الذي أكل حضارتنا حتى الآن.

إن الإنسان ـ بالنسبة لله ـ ليس جثة تزن سبعين رطلاً من اللحم والشحم. إنه «معنى» سماوي يدخل جثة فيمنحها قداسة خاصة أو لا يدخلها ويجعلها مجرد كتلة من اللحم لا تختلف في شيء عن جثة النعجة والحمار. الإنسان ـ بالنسبة لله ـ هو المعنى داخل الكلمة. إذا وجد المعنى أصبحت الكلمة نافعة وما دمت لا تستطيع أن تأكل المعنى أو تواريه في التراب فإن الله لم يرَ ثمة حاجة إلى أن يحرم عليك أكل موتاك أو يأمرك بدفنهم.

الخنزير ـ بالنسبة لله ـ مجرد جثة لذلك منعك من أكل جثة الخنزير، أما الإنسان فإنه لا يؤكل أصلاً حتى إذا أكلت جثته إلاّ إذا كان جثة حقيقية بلا معنى، وإذ ذاك يصير في الواقع خنزيراً عادياً وليس إنساناً من أي نوع. إنك تستطيع أن تأكل جثة جارك بالهناء وتمص مخه إلى آخر قطرة إذا كنت تعتقد حقاً أنه مجرد خنزير كما تدعوه في شتائمك. لكنني أعرف أنك لن تأكله.

أعني أفهم موقفك، وأفهم بالذات أنك لا تحب جارك الثقيل الظل وأنك تعتبره مجرد بغل جاهل ويستحق الموت لكنك لا تستطيع أن تأكله عندما يموت حقاً. إن ثمة شيئاً ما يمنعك من

تحقيق هذه الرغبة البسيطة ويجعلك ترمي تسعين رطلاً من اللحم الحسن المذاق في مقبرة سيدي أعبيد.

فلماذا؟

أعني لماذا لا تصفي نيتك وتتفضل بأكل هذا البغل الجاهل؟ الدين لا يمنعك كما قلت لك. إنه في الواقع لا يهمه ما تريد أن تفعله بجثة جارك المخلص. القانون أيضاً لا يمنعك، فالجمهورية الليبية مثل بقية بلاد العالم لا تملك نصاً قانونياً بتحريم أكل الجيران. فما الذي يعوقك عن أن تملأ بطنك بقطعة الفخذ من جثة عدوك؟ ما الذي يعوقك؟

الإجابة المؤلمة ـ وأنت لن تعترف بها قط ـ أن الذي يعوقك في الواقع وهم زائف في دماغك مؤداه أن الإنسان هو جثته وأسوأ ما في وهمك الزائف أنك تعتبره فضيلة دينية.

أنت ـ على عكس الله ـ تعتبر الإنسان جثة تزن سبعين رطلاً من اللحم والشحم. أنت ـ على عكس الله ـ لا يهمك شيء وراء الجثة ولا تتردد لحظة واحدة في أن تلصق بالإنسان أسوأ ما تعرفه من النعوت. أنت ـ على عكس الله ـ تحكم بالظواهر وتقاتل من أجل الظواهر وتعتبر جارك مجرد خنزير، لكنه ـ عندما يموت ـ تتراجع خطوتين وترفض أن تأكل جثته الطاهرة. أنت في الواقع فكر متناقض إلى حد يدعو إلى الدهشة، والمضحك حقاً أن تضع هذا الفكر في عداد الفضائل السماوية وتنسبه بالذات إلى الله.

فلماذا؟ أنا أسألك.. لماذا تأكل جثة النعجة وترفض أن تأكل جثة امرأتك التي تدعوها كل يوم باسم النعجة. لماذا تنعم بقطعة الفخذ من العنزة وترمي فخذ جارك في سيدي أعبيد ما دام هذا الجار بالنسبة لك مجرد عنزة ذكر. لماذا تدق ظهور أطفالك بالعصي، ثم تزعل كثيراً إذا أكلتهم كلاب المقبرة وتسارع

بالشكوى من البلدية، أعني لماذا لا تزعل أيضاً عندما ترى الكلاب تأكل جثة جحش عادي من جحوش الله؟

هل تعرف إجابة أكثر جدوى من القول بأن العادة جرت هكذا، وأننا لا نأكل موتانا لأننا تعودنا أن لا نأكلهم؟ وأن اللعبة بأسرها مجرد روتين في حياتنا..

أنت بالطبع لا تعرف إجابة أكثر جدوى. هذه أيضاً عادة أخرى بالنسبة لكل الناس الذين يعيشون بالعادة. إن أحداً منهم لا يملك مبرراً معقولاً لمعظم تفاصيل سلوكه اليومي لكن ذلك لا يمنعه ـ عادة ـ من أن يغمض عينيه ويزعم لنفسه أن الأمر يفهمه الله وحده. هذه بقية المغالطة.

أن نخدع أنفسنا، ثم ندعو الخدعة عادة، ثم ننسبها إلى الله، ثم نعاقب من يخالفها وندعوه كافراً بالله. أعني هذه مغالطة حقاً ليس ضد الإنسان فقط بل ضد الله أيضاً ولكنها تبدو فضيلة عادية في مخزننا الإنساني العامر بالفضائل.

فدعني أقل لك رأياً: إنني أعتبرك بربرياً إذا رأيتك تأكل جثة مواطن من بلدنا أو جثة أي مواطن آخر من أي بلد آخر لكنني أيضاً اعتبرك بربرياً إذا رأيتك تواري جثث الناس في سيدي أعبيد دون أن تفهم من معنى «الناس» سوى أنهم جثث. ذلك يعني بالطبع أنك سوف تظل رجلاً بربرياً في الحالتين، وأن الطريق الوحيد إلى الخارج هي أن ترى الناس كما يراهم الله معنى سماوياً مقدساً لا يقل قط عن معنى وجودك ذاته أن تصفي نيتك وتصبح بربرياً ذكياً وتملأ كرشك من اللحم بدل أن ترميه للدود. ليس ثمة حل آخر. حتى بالنسبة لمواطن عبقري مثل مواطننا في ليبيا ليس ثمة حل آخر.

إنه إما أن يكف عن اعتبار امرأته نعجة وأطفاله جحوشاً ويكسر

عصاه ويعاملهم دائماً معاملة الند للند أو يتركهم يموتون بالكحة ويأكل جثتهم عن آخر عظم. ليس ثمة فائدة من اختلاق الحيل الجانبية. ليس ثمة فائدة من خلع الألقاب على الإنسان ومعاملته مرة باعتباره من ذوي القربى ومعاملته مرة باعتباره من الغرباء. ليس ثمة جدوى من علاج الإنسان أو نقله إلى المستشفى أو الدفاع عن حياته أو تزيين عنقه بعقود الذهب إذا كان كل ما يعنيه الإنسان بالنسبة لنا هو جثته. هذا الوهم المحزن لا فائدة من ورائه سوى أنه يجعلنا نخسر مئات الأرطال من اللحم كل يوم في تراب سيدي أعبيد بضمير مستريح. فحلّوا مشكلة الإنسان أو حلّوا مشكلة اللحم. إن الأمر واحد بالنسبة لله.

الإنسان لا يختلف عن نعجة العيد في شيء إلاّ في نقطة عميقة واحدة. إنه يملك معنى خاصاً، أعني يملك عقلاً. شيئاً سماوياً من روح الله لا نستطيع أن نأكله ولا نستطيع أن نضربه أو نحبسه تحت السدة، وإذا حاولنا ذلك فسوف نحاول عبثاً لكن المحاولة نفسها تعني بالطبع أننا كنا نأمل أن ننجح وأننا في الواقع قد ارتكبنا الجريمة بالنية على الأقل وأن ضياع اللحم ـ بعد هذا الفشل كله ـ يبدو خسارة لا تحتمل. إننا من باب المنطق وحده مطالبون إذ ذاك بأكل موتانا.

الحل الباقي أن نعترف بضآلتنا تجاه الله.

نعترف بحكمته وبعجزنا الكلي عن اختراق قوانينه الشاملة وعجزنا بالذات على أكل إنسانه الحقيقي أو حبسه في البيت أو دق ظهره بعصا المكنسة. نعترف بأننا لا نستطيع أن نأكل الإنسان حتى إذا أردنا وأن الحل الوحيد الباقي أمامنا أن نكف عن معاملته مثل النعجة.

نكف عن ضربه مثل الحمار.

عن قهره بسلطة المجتمع. عن إرغامه على الجري وراءنا مثل الكلب. نكف عن معاملته باعتباره مجرد تسعين رطلاً من اللحم والشحم ونعطيه فرصته لكي يعيش بيننا بنصفه السماوي ونصفه الترابي معاً آمناً من سكينة الجزار ومن التقاليد غير الحميدة والعادات وشيخ المحلة وألسنة الجيران والأحكام الصادرة من طرف نعجة واحدة.

إنني لا أدعوكم إلى أكل موتاكم إلاّ لأنني أعتقد أنكم في الواقع تأكلون أحياءكم وأنه من الأفضل إذن أن نستفيد من أرطال اللحم الضائع ونقتسمها بيننا بدل أن نرميها للدود، فنحن ـ مهما قيل فينا ـ ما زلنا على أي حال أفضل من الدود.

2 نوفمبر 1971

فنادق وفئران

أحياناً تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ويكتشف المرء أنه سقط فريسة الغربة في ليبيا أيضاً، ويضع حقيبته فوق كتفه وينطلق للبحث عن فندق دامع العينين تقريباً.

يحدث هذا لمعظم الناس، وقد حدث لي بدوري ذات مرة ومشيت حاملاً حقيبتي فوق رأسي إلى فندق متواضع المدخل من فنادق الدرجة الثانية في مدينة طرابلس، وطلبت غرفة منفردة وقررت أن أنام حتى نهاية الأسبوع ولكني ـ فيما أذكر ـ لم أنم سوى بضع دقائق ثم أيقظني أحد ما واكتشفت أن إدارة الفندق قد ارتكبت خطأً في السجل وأعطتني غرفة يسكنها مخلوق آخر!

كان في الواقع زبوناً غريباً مغطى بالشعر يشبه الفأر من جميع الوجوه.. ولكنه لم يكن يتصرف مثل فأر على الإطلاق، وقد مشى في غرفتي على مهل وتفحص حقيبتي من أسفل إلى أعلى مبدياً استياءه من منظرها القبيح ثم عاد إلى وسط الغرفة ووقف عند سريري واضعاً أذنيه إلى الوراء في شراسة وطفق ينظر إليَّ بطريقة تدعو إلى الاعتقاد أنني سرقت منه ذلك السرير.

واتصلت بإدارة الفندق وأحطتهم علماً بالخطأ الفاحش الذي وقع في السجل ولكنهم أنكروا أن لديهم زبوناً غيري في الغرفة وزعموا لي أيضاً أن المخلوق الغاضب الذي يقف عند سريري ـ رغم سلوكه المتزن ـ مجرد فأر عادي من فئران الفنادق في طرابلس، ثم بعثوا لنجدتي خادماً يحمل مقشة.

وجاء الخادم وتعارك مع الزبون على أرض الغرفة وتصارعا معاً تحت السرير وكسرا المرآة وأحد الكراسي، ثم سقط الخادم على الأرض وقفز فوقه المخلوق المغطى بالشعر وانطلق عبر الباب المفتوح إلى الممر، وعندما نهض الخادم مرة أخرى كان يبدو متعباً إلى حد لا يصدق.

وسألته ببلاهة عما إذا كان يحب أن يستريح قليلاً على حافة السرير قبل أن يبدأ الجولة الثانية. فهزَّ رأسه بضع مرات ثم قال بعد برهة: لا وقت للراحة يا سيدي. لقد وصل الفأر الآن إلى الممر وعما قريب يراه أحد الزبائن وتبدأ رحلة الصيد المملة.

وسألته ببلاهة أكثر: أي رحلة صيد؟

الرحلة .. أجل، لقد نسيت أن أقول لك.. إننا نتجنب الإساءة إلى سمعة الفندق أمام السواح الأجانب، ونتظاهر أمامهم بأن الفئران ـ في الواقع ـ مجرد نوع من الأرانب البرية..

ماذا؟

وقال الخادم بتعب ظاهر: إنها قصة مملة.. اسمع، إن السيد المدير يقول للسواح الأجانب إن المخلوقات الرمادية المغطاة بالشعر التي يجدونها أحياناً تحت الدولاب ليست فئراناً على الإطلاق بل أرانب برية تقوم الإدارة بشرائها لكي تنظم لهم بين حين وآخر مفاجأة خاصة لمطاردة أرنب بري في الفندق.

وجلست على حافة السرير، وسألته ببلاهة أكثر عما إذا كان السواح يقعون حقاً في تلك الخدعة البسيطة فهزَّ رأسه بضع مرات ثم قال ببطء: أجل إن السواح في العالم لم يروا فأراً في حياتهم ولم يروا أرنباً برياً أيضاً. ثم إن فئراننا في الواقع تشبه الأرانب إلى حد لا يصدق والسيد المدير يقول لهم إنها أرانب بريّة من غابات طرابلس وأنه يشتريها لهم بثمن باهظ لكي يتسلوا بصيدها في الردهة، وهم يصدقونه بالطبع ويتصلون بنا طوال النهار لكي نطلق لهم أرنباً في ردهات الفندق وعندما يخرج أحد الفئران ينطلقون وراءه بالمكانس والأحذية ويقلبون الفندق رأساً على عقب ويضطر المرء إلى أن يعمل ساعة إضافية لإعادة تنظيف أرضية الممر.

ونظرت إلى الخادم بازدراء متعمد لكي أجعله يحس بأنني لا أصدق كلمة واحدة من قصته الخرافية. ثم بدأت استعد لطرده من الغرفة عندما سمعت فجأة صوت امرأة أجنبية في الممر تعلن لزوجها في لكنة أميركية حادة أن إدارة الفندق قد أطلقت لتوها أرنباً برياً آخر.

وصرخ زوجها من داخل غرفته: انتظري.. لا تدعيه يهرب إلى جهة المصعد.. أنا قادم في الحال.

وحدجني الخادم بنظرة تقطر مللاً ثم استدار منكس الرأس وقال عند الباب مباشرة: ها قد بدأت رحلة الصيد.. يا إلهي، لماذا تركت ذلك الباب مفتوحاً. إن لدينا هنا أكثر من ستين سائحاً مجنوناً وسوف يخرجون الآن جميعاً ويصرون على مطاردة الأرانب في هذا الممر.

وفي الواقع كان الممر قد بدأ يمتلىء بالأصوات الحادة، وكانت السيدة الأميركية قد وقفت منفرجة الساقين عند باب المصعد وطفقت تصرخ لكي تستعجل زوجها. وعندما ظهر الزوج في

نهاية المطاف كان مايزال يربط حزام بنطلونه القصير، وكان يصرخ بدوره مستدعياً صديقه «كليف» الذي يقطن في الغرفة المقابلة.

وقال الخادم المتعب: «كليف» أسوأ زبون عندنا على الإطلاق. إنه سيخرج الآن حاملاً حذاءه في يده ويشرع في تحطيم مصابيح الردهة.. وسوف يظل يطارد ذلك الفأر بحذائه ويحطم المصابيح حتى يتمكن أحد ما من تهدئته.. يا إلهي، إن ذلك العجوز يستطيع أن يصيب بحذائه أي شيء في العالم ما عدا الفأر المطلوب.

وصرخت السيدة الأميركية فجأة: ريتشارد إنه يتجه إلى غرفتنا.. أقفل الباب بسرعة.. يا إلهي هذا أكبر أرنب رأيته في حياتي.

وقال زوجها وهو يقفل باب الغرفة بهدوء: أجل إنه أرنب كبير حقاً، ولكنني رأيت أرنباً أكبر منه في هونغ كونغ. لا تدعيه يقترب من باب المصعد. إنه يستطيع أن يهرب منا عبر السلالم. يا إلهي لماذا يريد أن يتسلق السقف؟ كليف.. كليف.. إن الإدارة قد أطلقت أرنباً آخر.

وسمعت كليف يقول له من داخل الغرفة: أنا لا أستطيع أن أجد حذائي.. إن تلك الخادمة المجنونة قد وضعته في مكان ما.. يا إلهي.. لا تدعوا الأرنب يهرب عبر السلالم.. أنا قادم في الحال.

وحدجني الخادم بنظرته القديمة المتعبة ثم قال بوهن: إنه قادم في الحال.. وأنت لا تعرف ماذا يعني ذلك ولكنك تستطيع أن تنتظر لترى ذلك العجوز يطلق حذاءه الفظيع في كل الاتجاهات ويكسر مصباح الردهة مرة أخرى ويصرخ بملء رئتيه لتوجيه بقية الأحذية.. يا إلهي، أنا أستطيع أن أفعل أي شيء إلاّ أن أعمل في صيد الأرانب البرية داخل ردهة الفندق مع العجوز كليف.

وقلت له مواسياً: إنني سوف أتحدث مع السواح وسوف أقنعهم بأن يتركوا له مهمة مطاردة ذلك الفأر وحده، ولكنه استدار في اتجاهي فجأة وصرخ بذعر: أنت لا تستطيع أن تقول لهم شيئاً من هذا؟ يا إلهي ماذا تريد أن تفعل بنا.. إن الإدارة تقول لهم إن الفأر يخصهم وحدهم وإنهم يستطيعون أن يتسلوا بصيده كما يشاءون.

ثم أسند الخادم مكنسته على الجدار وقال بصوت أكثر اعتدالاً: ألا ترى سوء موقفنا؟ إننا لا نستطيع أن نذكر لهم شيئاً عن الفئران، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نمنعهم من رؤيتها. إن تلك المخلوقات المخجلة تتسكع في كل غرفة في الفندق، ونحن مضطرون للتشبث بخرافة الأرانب البرية لكي لا نسيء إلى سمعة بلادنا أمام الأجانب.

وقال كليف الذي خرج من الغرفة المقابلة لتوه: ابتعدوا عن الممر.. أنا أزمع الآن أن أطلق حذائي في اتجاهه، فإذا سقط على الأرض فاخبطوه مرة أخرى بالمكنسة.

ثم سمعت صوت الحذاء يرتطم بالسقف وسمعت السيدة الأميركية تصرخ باستثارة عند باب المصعد، أنت أخطأته مرة أخرى.. كليف، حاول أن تصوب بدقة أكثر، ولا تكسر مصباح الردهة من أجل الله.

وقال الخادم عند باب غرفتي: ولكنه سيكسر مصباح الردهة على أي حال.. إن المرء لا يستطيع أن يصطاد أرنباً برياً في ردهة الفندق دون أن يكسر المصباح على الأقل.. لماذا لا تخرج الآن لكي ترى ماذا يستطيع فأر ليبي واحد أن يفعل.. إن الممر مليء بالصيادين إلى حافته.

ووضعت رأسي خارج باب الغرفة، ورأيت السيدة الأميركية تقف منفرجة الساقين عند باب المصعد، ورأيت زوجها يربط حزام

بنطلونه القصير ويلتصق بحذر على طول الجدار لكي يفاجىء الأرنب الذي بدأ ينزلق تحت الضربات الموجعة إلى أرضية الممر، بينما وقفت مجموعة من السواح الألمان على طول السلالم وطفقوا يراقبون الصيادين في إعجاب واضح.

ووضع الخادم لفافته بين أصابعه وقال مبتسماً لأول مرة منذ أن جاء إلى غرفتي: هل لديك عود ثقاب؟ إنني أستطيع الآن أن أدخن لبعض الوقت ريثما يتمكن كليف من إصابة زبون ما أحمله إلى الإدارة لإسعافه، أو يتمكن أحد الصيادين من إسقاط ذلك الأرنب على الأرض.

وسألته ببلاهة عما إذا كان لا يريد أن يشارك في صيد الفأر بالمقشة ويجنب بقية الزبائن كل الأضرار المتوقعة التي يمكن أن تلحق بهم من حذاء كليف.. فهز رأسه بضع مرات وقال بمرارة: أنا عملي ينتهي عند هذا الحد. إن ذلك الفأر لم يعد فأراً على أي حال.. إنه الآن أرنب بري باهظ الثمن تشتريه الإدارة لكي يتسلى الزبائن بصيده في ردهة الفندق، وليس من المسموح به أن يشترك خدام الفندق في رحلة الصيد.. إن علينا أن نتفرج من بعيد وننقل المصابين إلى غرفة الإسعاف السريع ونصفق للزبون الذي يتمكن من إصابة الأرنب في نهاية المطاف.

وأقفلت الباب وراءه وعدت إلى سريري في محاولة يائسة لنسيان هذه اللعبة بأسرها.. كنت لا أستطيع أن أصدق عيني، وكنت أحس بأنني قد وقعت فريسة الكابوس نتيجة الإرهاق والتعب، ولكن الأصوات الحادة القادمة من الممر بلا انقطاع جعلتني أوقن تماماً أن كل شيء يحدث حقاً أمام غرفتي مباشرة، وأن البناء البسيط الذي اعتقدت أنه مجرد فندق كان في الواقع غابة حقيقية مليئة بالأرانب البرية والصيادين..

وأغمضت عيني، وغمرني إحساس مفاجىء بأن ذلك المخلوق المغطى بالشعر لم يكن فأراً ولم يكن أرنباً أيضاً بل كان زبوناً مثلي حمل حقيبته فوق رأسه وجاء الفندق يبحث عن غرفة وقد أعطته الإدارة تلك الغرفة وتركته يعيش فيها حتى جئت أنا وتسببت في مقتله. يا إلهي لقد كان في حجم أي زبون آخر وكان يملك مخزناً كاملاً من الأمتعة تحت الدولاب.

وكان أيضاً ـ وهذه حقيقة واقعة ـ يملك حقيبة قديمة في الغرفة وفرشاة أسنان.

24 يونيو 1969

الناس والبيوت

في القرن الثالث عشر كان الناس في ليبيا ينون بيوتهم من الطين وأعشاب البحر الجافة، وكان شيخ المحلة يتطوع دائماً للمشاركة في وضع الخريطة ويتطوع بعض الجيران أيضاً إلى جانب عامل البناء نفسه بالطبع. وكانت الخريطة تبدأ في الغالب يذبح نعجة ما..

ثم يأتي الفقي ويمسح المنطقة من الجان الذين يتوقع المرء أن يجدهم هناك، ويدق مسماراً خاصاً ضد العفريتة المعروفة التي رآها شيخ المحلة بنفسه ذات مرة ـ عندما كان في طريقه لصلاة الفجر ـ تركض في الشارع بدون رأس، وكان الناس في القرن الثالث عشر يرون العفاريت دائماً عندما يذهبون لصلاة الفجر ويتورطون في العراك معها بالأحجار وكانوا يفقدون رؤوسهم أحياناً في هذه المعارك غير المتكافئة، ولكن أحداً في الواقع لم يستطع أن يفعل شيئاً حيال تلك المخلوقات الفظيعة التي تتربص دائماً في الخربة، وفي البالوعة، وفي المطبخ وفي كل مكان آخر لكي تجعل المرء يفقد عقله من الرعب.. وكان الفقي الجائع ـ الذي يسكن عادة في الخلوة ـ يقوم وحده بعبء الدفاع عن الليبيين ضد هذا العالم العدائي بأسره.

ثم يبدأ البناء بوضع حجر الأساس والحجاب ومسمار الرصيدة.

ويتولى أحد الجيران العاطلين عن العمل مهمة إعداد الشاي فيما يقوم العمال ببناء الجدران الخارجية، ويتبادلون القصص وأعقاب السجائر وأنباء «المنط» القائم في الشارع الخلفي حتى تكتمل الجدران. ثم يحفرون في أحدها ثقباً ليعمل بمثابة مدخل للبيت ويعلقون فوقه نعل حصان. وكانوا يعلقون أيضاً بعض القرون إلى جانب الحوتة القبيحة المصنوعة من الكتان الأزرق لتوفير الحماية من أعين الجيران ومن الحسد. وكانت ليبيا في القرن الثالث عشر مليئة بالحسد إلى حافتها ولكنها ـ لحسن الحظ ـ كانت مليئة أيضاً بنعال الأحصنة.

ثم يبدأ المرء في حفر البئر.

ويذبح فوقه نعجة أخرى طبقاً للخريطة، ويبني وراءه على الفور الجدار الداخلي الذي سيفصل الحريم عن المربوعة إلى الأبد. وكانت المربوعة في القرن الثالث عشر عريناً معداً لاستقبال الرجال فقط الذين لا يريد المرء أن يراهم يعبرون الباب الجواني بأي حال. وكان المرء بالطبع يضطر إلى بناء المرحاض الخارجي في السقيفة لكي يقطع الطريق على بعض ضيوفه السخفاء الذين يلجأون إلى الحيلة القديمة المزرية ويتظاهرون بالحاجة للذهاب إلى المرحاض لكي يلقوا نظرة جانبية على سيقان الحريم..

وكان الناس في القرن الثالث عشر لا يحبون أن يلقي أحد نظرة على سيقان حريمهم، وكانوا يضطرون دائماً إلى بناء المرحاض الخارجي محتملين تكاليف زائدة للقيام بأعباء الضيافة دون التعرض لأية أخطار غير متوقعة.

ثم يبني المرء السدة.

ويطلب من النجار أن يدق في بابها بعض الأزرار اللامعة لأغراض الزينة، ويعلق فيها مرآتين وبعض الأقواس المصنوعة من الصفيح الملون. وكان الناس في ليبيا يفعلون ذلك، لأنهم كانوا يعرفون أن المرأة السيئة الحظ تقضي حياتها في السدة، وأن النجار على الأقل يستطيع أن يجعل عالمها هناك أكثر احتمالاً عن طريق تزيينه بقطع الصفيح الملونة.

وكانت المرأة في القرن الثالث عشر مشكلة قومية.

وكان الليبيون لا يجدون مكاناً آمناً واحداً يخبئونها فيه. وقد كسروا رؤوسهم في البحث عن حل لهذه المشكلة واخترعوا كثيراً من الحيل المثيرة للدهشة، ولكنهم على أي حال لم يتمكنوا من إغلاق الطريق كلية. وقد ظل في وسع معظم الليبيين الذين عاشوا في القرن الثالث عشر أن يدسوا نساءهم تحت السدة ويخرجوا بين حين وآخر لقنص امرأة أخرى من تحت سدة الجيران.

أجل.. ولهذا السبب كان المرء يضطر إلى بناء الباب الجواني.

وكان يطلب من «الحرمة» ألا تتخطاه إلاّ في طريقها إلى الله، ثم يضع لها كل ما تحتاجه وراء ذلك الباب ويحفر لها كوة عند السقف لكي تعمل بمثابة النافذة. أما المطبخ فإن الناس في القرن الثالث عشر لم يكونوا ـ في الواقع ـ يهتمون ببنائه لسببين:

الأول، أن المطبخ مكان للمرأة وحدها.

الثاني، أن المرأة لم تكن تشارك في وضع الخريطة.

وكان الناس يكتفون في الغالب بإقامة ثلاثة جدران بدون سقف ثم يضعون في وسطها ثلاثة مناصب للقدر، ويعلقون حوتة على المدخل..

وكان القديد في خزانة السدة. وجوال الشعير في غرفة الجلوس

أما الفحم فقد كان الليبيون في القرن الثالث عشر ينون له غرفة خاصة، وكانوا يضعون عفريتة في تلك الغرفة ويستدعونها لكي تأكل أطفالهم بين حين وآخر، وفي الغالب كان المرء يبتكر اسماً فظيعاً لغولته الخاصة ويشرع في مناداتها طوال النهار لكي تأكل طفله الشقي حتى يفقد الطفل صبره ذات يوم ويعلن له أنه يعرف اللعبة بأسرها. ويعرف أن دار الفحم لا تضم شيئاً في الواقع سوى الفحم نفسه وبعض الفئران.

عندئذٍ كان المرء في القرن الثالث عشر يترك غولته جانباً ويبدأ في تربية طفله بالعصا. وكان يحبسه وحده في الغرفة المظلمة التي ماتت فيها جدته ويكسر ضلوعه بالسوط السوداني ثم يقول له أيضاً إن عفريتة جدته سوف تطلع له حاملة غربالاً مزيناً بالشموع فوق رأسها لكي تحرمه من النوم. وفي العادة تطلع العفريتة حقاً وتجعل الطفل يتصلب من الخوف بقية حياته، ولكن ذلك على أي حال لم يجعل الأطفال الليبيين الذين عاشوا في القرن الثالث عشر أفضل تربية من سواهم.

كانوا جميعاً من تربية الغولة التي تسكن في دار الفحم. وكانوا أسوأ أخلاقاً مما يعرف أهلهم عادة. فالطفل الليبي في القرن الثالث عشر كان يعيش في الشارع وينام تحت السدة، ولم يكن ثمة من يعرف عدد الفظائع التي يرتكبها كل يوم قبل أن يضع ابتسامته الملائكية فوق وجهه ويعود إلى البيت في المساء وكان ذلك يحدث لأسباب عدة منها بالطبع أن البيت الليبي نفسه كان يضم غرفة للغولة بدل غرفة للأطفال.

وكان يضم أيضاً مطهرة في الركن المقابل للسدة تعمل بمثابة حمام.

والمرء يعرف بالطبع أن الليبيين في القرن الثالث عشر كانوا

يكتفون ببناء المطهرة في غرفة النوم بدل الحمام المنفصل لأنهم ببساطة كانوا يغتسلون لنزع الجنابة فقط، وكانت المطهرة التي تقام في الركن المقابل للسدة تكفي لتأدية هذا الغرض. فالمرء ينال حاجته من الحب فوق السدة ثم يتدحرج على السلم المزين بقطع الصفيح الملونة ويهبط إلى المطهرة لكي ينزع الجنابة دون أن يعرف أحد من سكان البيت بما حدث. فالحب في القرن الثالث عشر كان بضاعة محاطة بالكتمان، وكان الناس يفضلون أن يفعلوا كل شيء داخل غرفة واحدة. أما غسل الجلد فقد كان يحدث في الليان، وهو آنية فظيعة مثيرة للضجة تجعل المرء يضع تحتها كل ما يجده في البيت من الخرق لكي يستطيع أن يغسل جلده دون أن يعرف بقية سكان الشارع، وكان الليبيون يغسلون جلودهم عادة يوم الجمعة مراعاة لصلاة الظهر.

أما النساء الليبيات اللائي لا يذهبن للصلاة في الجامع فإنهن لا يغسلن جلودهن في الغالب إلاّ إذا تزوج أحد الجيران واضطررن إلى المشاركة في العرس.. وكانت رائحة الشعب الليبي في القرن الثالث عشر سيئة معظم أيام الأسبوع، وكان الرجال يفوحون برائحة المضغة المخلوطة بالعرق، وكانت النساء تفوح برائحة البصل والقرنفل، وكان الأطفال دائماً يفوحون برائحة البوكبير الذي يستعمل للحماية من الحسد. وبالطبع لم يكن في وسع الليان البسيط أن يفعل شيئاً حيال هذه الكارثة الشاملة ولكن خرائط البيوت الليبية في القرن الثالث عشر كانت تلجأ إلى حيلة أخرى للتغلب على مشكلة الروائح النفاذة بإغراقها جميعاً في رائحة المرحاض. وكان ذلك البناء مجرد حفرة فظيعة مليئة بفضلات الطعام وكان المرء يعرف أنه لا يضم سوى أحقر أنواع الجن والصراصير. ومع ذلك فقد كان الليبيون في القرن الثالث عشر

يدعونه أحياناً «بيت الأدب» من باب الأناقة في التعبير متجاهلين بالطبع أن رائحته الفظيعة تستطيع أن تنبىء عن نوع هذا الأدب بطريقة شبه مؤسفة.

هكذا كان البيت الليبي يعد للاستعمال، وكان المرء يذبح نعجة أخرى على العتبة ثم يشرع في نقل متاعه خلال الليل مراعاة لظروف الكتمان، فيما تصل الحريم في العربية ذات النواقيس وتزغرد عند الباب الجواني وتغلقه وراءها إلى الأبد.

إلى الأبد كانت المرأة الليبية تغلق الباب الجواني وراءها. ثم تكسر دحية على الجدار في غرفة النوم لطرد الشيطان الذي يبدو أنه لم يجد أبداً ثمة ما يفعله سوى مطاردة الليبيين في كل مكان ثم تتسلق السدة وتجلس هناك في مأمن من اللصوص.

وكانت المرأة الليبية ـ مثل الملك خوفو ـ تتعرض للسرقة رغم حصانة الهرم الأكبر والبيت الليبي على حد سواء، ولكن المرء لا بد أن يعترف بأن الليبيين في القرن الثالث عشر ـ مثل معظم بناة الأهرام في العالم ـ قد فعلوا كل ما يستطيعون فعله أمام حيل اللصوص والعشاق.

هكذا كان الناس في ليبيا يبنون بيوتهم طبقاً لأفكار الثقافة السائدة، أما الآن فإن البيوت الليبية تبنيها ثقافات أخرى لا علاقة لها على الإطلاق بالناس الذين عاشوا في القرن الثالث عشر. وإذا كان هذا التغيير لم يحدث من الخارج فقط فلا بد أن الليبيين الحاليين قد بدأوا يموتون من الخجل تجاه ما حدث في القرن الثالث عشر..

فكم بلغت خسائرنا في الأرواح هذا العام؟

15 يوليو 1969م

السباع

«محاولة لإدخال العزاء على قلب أول طفل

ليبي يفقد أسنانه خلال هذا النهار»

الزمن الساعة الثامنة من صبح الله..

المكان شارع بوغولة أو شارع بو حبلة أو أي كارثة تخطر ببالك..

الستارة قطعة من الخيش ترتفع بحذر وراء باب المواطن «ج.ل.» وتطل من تحتها عينا ولده المدعو «بو شوال» من باب الرغبة في حمايته من الحسد.

بو شوال يحتاج إلى حماية من ابن الجيران الذي يستولي على إفطاره كل يوم ويقرص له أذنيه لكنه بالطبع لا يستطيع أن يتوقع تلك الحماية من أحد. إن عليه أن يحل مشكلته بنفسه، وقد انتظر وراء قطعة الخيش ملتزماً جانب الحذر حتى رأى ابن الجيران يمر أمامه وأعطاه مهلة دقيقة لكي يصل إلى المدرسة، ثم خرج من مكمنه مرفوع الرأس.

قابله إبن الجيران عند المنعطف على أي حال. أخذ إفطاره وقرص له أذنيه مقابل خدعته البسيطة. رآهما الحاج «ع.ك.» صاحب بقالة الحرية وقال لهما بأعلى صوته: «امشوا يا فروخ».

أعلن الكناس الذي كان يوقد النار لشاي الصباح أمام دكان الحاج أن قلة الحياء من صفات هذا الجيل.

في المدرسة انتشرت إشاعة مؤداها أن بو شوال مغلوب على أمره، وقصده اثنان من زملائه خلال فترة الاستراحة وفتشا جيوبه بحثاً عما يمكن أن يؤكل. لم يجدا شيئاً سوى الممحاة وقد أخذاها وطلبا منه أن يحضر لهما برتقالتين في اليوم التالي.

بعد الظهر حمل بو شوال طبق الخبز إلى الكوشة ووجد ابن الجيران ينتظره في حلقة من أتباعه. لقد سقط قلبه بين قدميه ولكنه تحامل على نفسه ومر بجوارهم مطرق الرأس في محاولة يائسة لإظهار الطيبة. لم تنجح الخدعة بمقدار عقلة إصبع، وقد استدعاه ابن الجيران لكي يمثل بين يديه ودعاه امرأة وتركه يقبل قدمه على مرأى من أطفال الشارع.

خلال الليل حلم بو شوال بأن طوله متران.. وحلم بأن عينيه تتطايران شرراً ومشى مختالاً في الشارع وأمسك ابن الجيران من عنقه وألصقه على الجدار لكنه استيقظ في الصباح كالعادة ووجد أن طوله لم يزد بمقدار عقلة إصبع ووجد ابن الجيران ينتظره عند المنعطف وخسر كتاب المطالعة الذي استولى عليه زميلاه مقابل البرتقالتين.

في ذلك اليوم قرأ المعلم «نحن أسود الفلا» وطلب من بو شوال أن يقرأها أيضاً، ثم أعطاه عشر جلدات عندما أخبره أنه نسي كتاب المطالعة في البيت. ضحك زميلاه اللذان استوليا على الكتاب وأعلنا له أنهما سيأخذان «هداية الناشئين» أيضاً إذا لم يحضر لهما البرتقالتين.

خلال الليل حلم بو شوال بوالده.. سمعه يعيره بأنه مثل «عبلة» وأن ابن الجيران مثل عنتر.. أدار بو شوال رأسه في المنام بحثاً عن

ملجأ من عيني والده.. لم يكن ثمة مكان واحد في العالم يلجأ إليـه. كان والده يطل عليه من السماء وكان يقول له«اخزي يا بنية.. اخزي يا عبلة»..

في الصباح تجنب بو شوال أن ينظر إلى عيني والده..

لقد رآه يشرب قهوته الصباحية أمام الباب الجواني وقرر أن يتفاداه متظاهراً بالبحث عن كتبه في المطبخ.. لفت سلوكه الغريب نظر والده، استدعاه فوراً لكي يمثل بين يديه.

«كنك؟» قال والده.

«شي» قال بو شوال.

«كنك مستوه كيف البنت» قال والده.. «انطق يا فرخ».

امتلأت عيناه بالدموع.. عض على لسانه لكي يحبسها.. بدأ لسانه يوجعه لكن دموعه غلبته على أمره.. «شي» قال بو شوال.

أمسكه والده من أذنه.. قرصها له بين أصابعه ولم يتوقف عن قرصها حتى سمع القصة بأسرها.. أطلق سراحه إذ ذاك وبصق على وجهه.

«هكي؟» قال والده «يعني خايف منه.. تعال.. توه تمشي تضربه قدامي».

سقط قلب بو شوال بين قدميه لكنه جرّه وجرّ قدميه ومشى مطرق الرأس وراء والده..

كان ذلك في الساعة الثامنة من صبح الله.. وكان ما يزال عليه أن يحفظ «نحن أسود الفلا».

«اضربه على كبده» قال والده عندما رأى ابن الجيران يخرج من بيته «تعاله بو شوال واضربه على كبده».

مشى بو شوال مطرق الرأس.. خيّل إليه ذات مرة أن أمعاءه تقفز من حلقه.. وقف واجماً أمام ابن الجيران ثم لمسه في بطنه بحذر متناهٍ لكن الطفل المدهوش صرخ بأعلى صوته كأن أحداً ما قد غرس مطواته في صدره ثم استدار فوراً وانطلق يركض صارخاً في اتجاه بيته. لقد رأى والد بو شوال بطرف عينه وأدرك فوراً أنه لا يستطيع أن يغلب اثنين بالمعركة.

بعد دقيقة واحدة خرج الغلام من بيته مرة أخرى في صحبة والده. وقف الرجلان وجهاً لوجه وقال أحدهما للآخر «اخزي يا تيس» صرخ الحاج «ع.ك.» من داخل بقالة الحرية «العنوا الشيطان يا جماعة خلوكم من العيال» قال الشيطان في أذن بو شوال «أنا بس إيش دخلني».

«علي الطلاق» قال الرجل الآخر «علي الطلاق انهدلك اسنونك».

«علي الطلاق» قال والد بو شوال «علي الطلاق انكسر لك خشمك».

«علي الطلاق» قال الرجل الآخر «علي الطلاق اللي مش طلاقك انسفطلك وجهك».

«علي الطلاق» قال والد بو شوال «علي الطلاق يا قرد انطلعلك مصارينك»..

تدخل الحاج «ع.ك.» صاحب بقالة الحرية لإيقاف المعركة عند حد المصارين وقال إن الخصمين متعادلان بالنقط.. لكن ذلك كله بالطبع لم يحل مشكلة بو شوال.

قابله زميلاه على باب المدرسة وطلبا منه أن يطلع «هداية الناشئين» أو البرتقالتين.. نظر إليهما بو شوال غاضباً على غير عادته

وقال لهما بالحرف الواحد «علي الطلاق انهدلكم اسنونكم». تراجع الطفلان إلى الوراء غير مصدقين، وتبادلا النظرات ثم سأله أحدهما «أنت تهدلنا أسنونا»؟

«آه» قال بو شوال مغالباً شكوكه «علي الطلاق انطلعلكم مصارينكم» كان قد اكتشف أن الزئير نصف سمعة السبع وأن النصف الباقي قليل من الصبر على وجع الأمعاء.

«طري» قال أحد الطفلين في محاولة أخيرة للسيطرة على الموقف «علي الطلاق أنا اللي انكسر لك راسك».

«عا أمك» قال بو شوال «وحق النبي نقتلك» ثم مد يده واسترد كتاب المطالعة وذهب يبحث عن مكان هادىء في الفناء. كان يملك نصف ساعة فقط لكي يحفظ نحن أسود الفلا.

سيقول أحد ما إنني أسخر من شجاعة الليبيين في مواجهة الخطوب.

سيفقد أحد ما أعصابه ويتهمني بالإساءة إلى مقدساتنا. سيزعم أنني أنكر كل شيء وأنكر أن بلدنا غابة صغيرة مليئة بالأسود، وأن المواطن الليبي يولد حاملاً هراوته معه ويشق بها طريقه إلى الجنة. سيقول لي أحد ما «علي الطلاق نقتلك»..

لذلك الرجل أنا أقول مقدماً «يستر الله».

24 أكتوبر 1970